

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

قصر التذوق
سلسلة الفلسفة والعلم
(١١)

قضايا العلوم الإنسانية
إشكالية المنهج

إعداد
د. يوسف زيدان





وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
سلسلة
الفلسفة والعلم
(١)



قضايا العلوم الإنسانية
إشكالية المنهج

بأقلام

د. أحمد أنور أبو النور
د. علي عبد المعطى
د. حسن حنفى
د. محمد على الكردى
د. حسن وجيه
د. مصطفى عمر
د. عبد الرحمن العيسوى
د. ناجى بدر

إشراف وتقديم
دكتور / يوسف زيدان

تصميم الغلاف : أميرة فهمى

كتاب الفلسفة والعلم

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
حسين مهران

المشرف العام
د. يوسف زيدان

المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالى
١٦ شارع أمين سامى
القصر العينى - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

المحتويات

تقديم

المشكلة هى المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما فى العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة فى شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكريا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.. وعلميا أيضا .

إن مشروع النهضة فى بلادنا، ذلك المشروع الواعد بالكثير منذ عصر الطهطاوى إلى اليوم؛ لم يثمر بقدر ما وعد، ولم يتحقق منه إلا القدر القليل.وما ذلك التأخر فى الإثمار، والتعثر فى السعى ؛ إلا لأسباب من أهمها: افتقاد المنهج! فالأمة خلال القرنين الماضيين تتحرك بقوة. بيد أنها حركة بلا منهج، فحتى الان لم تجب على السؤال الأول فى مشروع النهضة : هل ننهض ذاتيا ، أم نعتمد على الغرب؟ وإذا جمعنا بين الأصالة والمعاصرة، فعلى أي نحو يكون الجمع؟ وما الذى يؤخذ أو يترك من التراث ومن الغرب؟! تلك هى المنطلقات الأساسية للنهضة، وذلك هوالسؤال المحورى فيها.. ومع ذلك، فنحن حتى الآن فى تشتت الرؤى والتخبط بين جملة إجابات.. وبالرغم من أن السؤال واحد، وأن السؤال نصف الإجابة؛ إلا أننا لم نتفق على النصف الآخر من إجابة هذا السؤال الواحد، المشروع، الموضوع بقوة أمام وعيناالمعاصر منذ قرابة القرنين؛ بل الأعجب أن البدايات اشتلمت على رؤية منهجية أوضح من رؤى الأواسط

والنهايات.. ففي البدايات كانت خطوات الطهطاوى وخير الدين التونسى تسير وفق رؤية منهجية واضحة. ملخصها : أن هذه الأمة ، كي تنهض ، عليها الحفاظ على جوهر حضارتها (اللغة - الدين - التنشئة الاجتماعية) وتدعيم هذا الجوهر ، وحفظه، والحفاظ عليه، بعناصر متقدمة من الغرب (العلم - النظم والإدارة - التصنيع) وبهذه الروح كتب التونسى «أقوم المسالك فى معرفة الممالك» وكتب الطهطاوى «تلخيص الإبريز» و«المرشد الأمين» وغير ذلك من مؤلفاته وترجماته.

واستمرت هذه الرؤية المنهجية ، واضحة ، فى الجيل التالى للطهطاوى والتونسي.. لكنه، ومع ابتداء القرن العشرين ، غامت الرؤية وعاد فريق منا إلى الماضى بكل قوته، وطرح الحاضر، وعاداه.. وفريق آخر ألقى بنظره إلى الغرب، وقاطع ماضينا، واعتبر الغرب غاية أملنا ومنتهاه. وسرعان ما اشتبك الفريقان، خلال القرن الحالى المسمى زوراً «قرن التنوير» ليحتدم الاشتباك بين جماعات نتأت فجأة: السلفية والعلمانية، الرجعية والتقدمية، المتغربون والمتأسلمون ، القوميون والنفطيون، السياسيون والعلميون.. الخ، ولكل فرقة منهم شرعة ومنهاج! ومع اشتباك الفرق، بل مع احتدام الاشتباك، انشغل كل فريق بالاخر، وادعى أن عنده (الحل) وتعالت فيما بينهم المهاترة، فعلت بينهم درجة المغايرة.. وصار أهل كل فريق بما لديهم فرحون، بينما الواقع العام يزداد حزنا، والخطو العام متفرق بين الأقوال والأهواء.. وتلاشى المنهج .

والمنهج هو المشكلة.

***

والمنهج يعنى : أسلوبا فى التفكير، وخطوات علمية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور.. وهو برنامج عمل فى البحث العلمى، وفى نقل النظرى إلى التطبيق، وفى التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة..فلا بد - إذن - من طرح إشكالية المنهج .

وإشكال المنهج، بعمومه، إشكال واسع الأبعاد. والطريق إلى تحديد (المنهج) فى شتى أمورنا المعاصرة ، طريق طويل.. طريق طويل نقطعه، وقد يقطعنا الزمان إن لم نقطعه، لنصل فى النهاية إلى منهج واضح يرشد خطواتنا وينظم فكرنا ويجعلنا - على نحو مثمر - نستبصر الواقع ونستشرف المستقبل. ومن هنا كان طرحنا لقضية (المنهج فى العلوم الإنسانية) باعتبارها أحد أهم القضايا الإشكالية المتعلقة بهذه العلوم من جهة، وباعتبارها- من الجهة الأخرى - خطوة مهمة على طريق استكشاف منهج عام لهذه الأمة التى عانت طيلة العقود الماضية من تشتت منهجى لا حد له.

وقد تفضل الدكتور / على عبد المعطى محمد بصياغة (ورقة العمل) فى هذه الإشكالية المحورية، فعرض فيها لمفهوم العلوم الإنسانية وما تعانيه من أزمة منهجية اتضحت معالمها شيئا فشيئا، حتى وصل الأمر إلى ما هو «مدهش حقا أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد منها مع

الاخر تعارضا جذريا، كاتخاذ منهج التحليل النفسى والمنهج التجريبى والقياسى فى علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخى والمنهج التجريبى الإحصائي فى علم الإجتماع» وهنا «ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج ، وتم صياغتها على النحو التالى: ألا يمكن أن نجد منهجا واحدا للعلوم الإنسانية؟»

وقد طرح الدكتور / على عبد المعطى رؤيته المستندة، فى الإجابة على هذا السؤال الأخير، على مقولة (الفهم) التى حددتها المدرسة الألمانية، وأورد عليها تعقيبات وملاحظات، ليظل ملف القضية مفتوحا أمام أصحاب المشكلة، أعنى المشتغلين بالعلوم الإنسانية على اختلاف تخصصاتهم .

وتوالت من بعد ذلك الرؤى، ليعرض الدكتور/ حسن حنفى قضية (المنهج الفلسفى) فيشير إلى اختلاف المناهج باختلاف الشعوب وطرائق تفكيرها، وكيف تطورت الحركة المنهجية من خلال سمات عامة للوعى الأوروبى عبر تاريخه الطويل، ليقف بعد ذلك عند تطور الرؤية المنهجية فى الحضارة العربية الإسلامية وتنوعها من عقلانية عند الفلاسفة إلى «جدلية عند المتكلمين، ذوقية عند الصوفية، أصولية عند الفقهاء..» وهو يرى أن الخروج من الأزمة المنهجية المعاصرة – على صعيد الفكر الفلسفى– يكمن فى التنظير المباشر للواقع وفقا لقواعد أهمها: إعمال العقل وإزاحة اللامعقول! وهو ينتهى إلى القول: «إن التحدى الآن ليس هو الأزمة، بل المدخل إليها. فالأزمة فى المنهج قبل أن تكون فى الموضوع» ولأن من طبيعة الفلسفة أن تصوغ

الأسئلة الكبرى - ربما بأكثر مما تقدم الإجابات- فقد أعاد الدكتور حسن حنفى طرح نفس السؤال/ المشكلة الذى طرحه من قبل شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ليظل الملف مفتوحا..

ويدخل الدكتورر محمد على الكردى إلى القضية من باب تخصصه، فيسهم فى هذا الملف ببحثه (المنهج فى دراسة الحضارات) فيدهشنا تناوله للموضوع حين يكثر - وهو استاذ اللغة والحضارة الفرنسية - من الاستشهاد بأبيات الشعر العربى القديم، ليخلص إلى رأى مؤداه أن : بالرغم من بروز مفهوم «الحضارات» خلال القرن التاسع عشر، فإننا لانجد أى اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى مصطلح «الحضارة» وهو يؤكد ما يقرره بشواهد من تعريفات متضاربة لأعلام الدراسين للحضارات من أمثال: جيزو شبنلجر ، توينبى.. ويختتم باحثنا عرضه للقضية بأن علينا: كشف وإنتاج الحقائق الكامنة فى تاريخ الحضارات عن طريق بناء المناهج والمداخل وتحديد الرؤي الجديدة والمتغيرة وفقا لاهتمامات العصر واستثمارا لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز دفاع مصطنعة ! هكذا تحدث الدكتور محمد الكردى، فهل تراه يريد تحريرنا من وهم «العلمية» ليدخلنا مدخلا نفعيا، وجدليا، ديناميكا، فى درس الحضارة؟ بل بالأحرى: فى الاستفادة من درس الحضارة!

وينتصر الدكتور/ ناجى بدر للرياضيات، واصفا إياهابأنها «لغة العلم» بل يؤكد أنها «اللغة الوحيدة التي لا تتأثر بأي تحيزات تنبع من المضمون الذى تستخدم فيه» وهو يبدأ ورقته البحثية (المنهج

الرياضى فى العلوم الاجتماعية ببيان الفرق بين الاتجاه الكيفى والاتجاه الكمى، فينتقد الأول ويربط بينه وبين الأيديولوجية - الرأسمالية والاشتراكية - ويشرح الاتجاه الآخر، الكمى ، تفصيلا موضحا دعائمه ومقوماته وفوائده ونظرياته وحدود تطبيق المنهج الرياضى/ الكمى فى العلوم الاجتماعية، خاصة فى عصر الحاسبات الآلية.. وهو يرى أن : استخدام الرياضيات فى العلوم الاجتماعية يمكن أن يحقق مزيدا من الاتفاق بين العلماء الاجتماعيين، بشرط الاعتماد على الأسلوب الإحصائي المناسب لموضوعات البحث، وبشرط دراية الباحثين وإجادتهم فى استخدام الأساليب الإحصائية.

وعن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) يتحدث الدكتور/ مصطفى عمر موضحا إشكالية المنهج فى هذا العلم الاجتماعى الشيق، من خلال عرضه التفصيلي لمناهج البحث الأنثروبولوجى وهو العرض الذى طوف فيه باحثنا بأرجاء المدارس والاتجاهات الأنثروبولوجية، منتهيا إلى حصر موجز لما يجب - منهجيا- اتباعه فى مجال الأنثروبولوجيا، وماهو متبع - فعلا- في هذا المجال .

ويتفق الدكتور/ عبد الرحمن العيسوى مع الدكتور/ على عبد المعطى فى أهمية المنهج الكيفى ومناسبته لعلم النفس، ففى ورقته (عنوانها: مناهج البحث فى علم النفس الحديث،رؤية نقدية) يعرض لتطور طرق البحث، وأهم المناهج المستخدمة، وأساليب اختيارعينات البحوث، ثم ينقد أشهر هذه الطرق المنهجية (الاستطبان- الاسقاطية - الموضوعية العلمية) أعنى المنهج الرياضى - الذى أدى بعلم النفس

إلى «تحوله إلى عمل آلى ميكانيكى حرفى يتمثل فى استجلاب كمية من المعلومات من العقول الالكترونية، بعد دس مايحصل عليه الباحث فى فم الكمبيوتر، ليحصل على كميات هائلة من الأرقام.. بعيدا من الواقع الميدانى»..

ومن علم النفس إلى علم جديد يحدثنا عنه الدكتور/ حسن وجيه فى بحثه (منهجية علم التفاوض الاجتماعى والسياسى، رؤية امبريقية) الذى يؤكد فيه مشروع التئام العلوم الاجتماعية من أجل تحليل ظاهرة التفاوض، وهو الالتئام الذى ينتج علما تمازجيا حديثا يسميه علم اللغويات السياسية، وهو ما اقترحه باحثنا من قبل فى رسالته للدكتوراة التى قدمها قبل سنوات بالولايات المتحدة الأمريكية؛ كما يقترح - أيضا- نموذجا منهجيا لتحليل مفهوم (القدرة) من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية، وحدود استخدام هذا النموذج، والصعوبات التى تواجهه، والحلول المطروحة لتجاوز هذه الصعوبات .

وأخيرا ، تخرج بحوث الكتاب من دائرة ثقافتنا (نحن) لتطل على ثقافة (الآخر) الغربى، من خلال بحث الدكتور/ أحمد أنور (ضد المنهج : إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة) ذلك أن الأمر يقتضى، ما دمنا بصدد الكلام عن قضية كبرى كهذه، أن ننظر فى واقع القضية هناك.. وقد استعار باحثنا عنوان كتاب شهير لبول فيرابند P. Feyerabend هو Against Method الذى يمثل موقفاً متطرفاً مضاداً للمنهج والعقلانية، ولكننا - من زاوية أخرى-

لايمكن أن نتوحد مع الغرب، في عمق شراسته التي يمارس بها نقد الذات محاولا تجاوز مشروع الحداثة الغربية، وهو المشروع الذي يعتقد الكثيرون من مفكري الغرب أنه استنفذ أغراضه» .

.. وكان مقررا أن أكتب بحثا لهذا الكتاب، عنوانه (المنهج والتصوف) ومنعني عن ذلك أمران، الأول أن قضية المنهج في التصوف قضية إشكالية متسعة المجال، فهناك إشكال المنهج في النسق الصوفي ذاته، أعني التصاعدية العروجية منع عالم الحس إلى عالم الحضرة الإلهية عبر السلم الروحي المعروف باسم «الأحوال والمقامات» وتلك نقطة مشكلة لأن النسق هائل الاتساع، حتى أن الصوفية تقول «الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر» وهذا أمر لايمكن ضبطه منهجيا، بل إن «الجذب» يلعب فيه دورا مهما.. وهو دور، ضد المنهج! وهناك إشكال المنهج في دراسة التصوف، وتلك بدورها نقطة مشكلة لأن هذه الدراسة تتعدد مناهجها - بحسب ما ذكره الدكتور/ علي سامي النشار في مقدمة الجزء الثالث من كتابه، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - ومع هذه المناهج المتعددة، يظل «التذوق» أمرا لازما لدراسة التصوف، وهو - أيضا- أمر: ضد المنهج! أما المانع الاخر، فهو أنني سبق أن قدمت بحثا في المؤتمر الثالث للجمعية الفلسفية المصرية (القاهرة، جامعة الأزهر ١٩٩٢) كان عنوانه: المنهج بين المتكلمين والصوفية. ولم أشأ هنا أن أكرر ما سبق، فالتكرار اجترار.. ونحن اليوم في أشد الاحتياج للجدة والابتكار واستشراف الآفاق الجديدة في الفكر والسلوك .

***

وبعد.. فهذا عمل شرفت بالإشراف عليه؛ أوبالإحرى: التنسيق والإعداد له! ذلك أن المشاركين فيه، أغلبهم منى بمنزلة الأستاذ ، وهم صفوة مختارة من أعلام الثقافة في واقعنا المعاصر؛ ولقد ساهموا «متضامنين» فى طرح قضية أراها من أهم القضايا المعروضة أمام وعينا المعاصر .

ولسوف تناقش بحوث هذا الكتاب فى الملتقى الأول للفلسفة والعلوم، الذى سينعقد بقصر ثقافة التنوق بسيدى جابر/ بالاسكندرية (يناير ١٩٩٦) ولعل المناقشات تثرى الاشتباك الفكرى المثمر بصدد هذه القضية التى يعالجها الكتاب.. وسوف تتواصل- بإذن الله - الجهود، فتستمر هذه السلسلة (الفلسفة والعلم) فى الصدور تباعا، وتتوالى الملتقيات الفلسفية / العلمية حول موضوع كل كتاب جديد فى السلسلة بالاسكندرية ..تلك المدينة الغارقة فى بحارالثقافة منذ عهد البطالمة، حتى عصرنا الحالى ..

وتبقى كلمة شكر، للأستاذ/ حسين مهران رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة على تخصيصه هذه السلسلة من الكتب وتشريفى بالإشراف عليها.. وللأستاذ / محمد السيد عيد مدير الثقافة العامة بالهيئة لدعمه المستمر لهذه الفكرة حتى ظهرت إلى النور. وللأستاذة/ ليلى فهمى مديرة قصر التنوق بسيدى جابر لجهودها العظيم فى رعاية ملتقانا الفلسفى/ العلمى، بروحها الإسكندرانية الأصيلة.

والله الموفق،

دكتور / يوسف زيدان



ورقة العمل

البحث عن منهج للعلوم الإنسانية

د. على عبد المعطى محمد(*)

(*) استاذ ورئيس قسم الفلسفة بآداب الاسكندرية

البحث عن منهج للعلوم الإنسانية

أولا : أزمة المنهج فى العلوم الإنسانية

يمكن تعريف العلوم الإنسانية بأنها «تلك التى تدرك العالم على أنه ينطوى على معان، وتتكون معرفتها بتلك المعانى» وهذا يعنى أن علوم الإنسان تحاول النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعانى والمقاصد التي تقف وراء الواقع أو التعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكا كيفيا» ، فموضوعها يختلف على هذا النحو عن موضوع العلوم الرياضية الذى يدور حول الكم المتصل والمنفصل، كما يختلف عن موضوع العلوم الطبيعية الذى ينصب على المادة، وبديهى أن يؤدى الاختلاف فى الموضوع إلى اختلاف فى المنهج .

كان علماء الرياضة قد اتخذوا منذ القدم المنهج الاستنباطى Deductive Method منهجا ملائما للعلوم الرياضية، ووجدنا آثار ذلك عند أفلاطون الذى كان يعلم فى أكاديميته الاستنباط المنطقى للقضايا الرياضية، وعند أرسطو فى حديثه عن العلم البرهانى، وعند اقليدس وتشييده للهندسة على هيئة نسق استنباطى، ونفس الأمر ينطبق على المنهج الاستقرائى Inductive Method الخاص بالعلوم الطبيعية فلقد عرف أرسطو الاستقراء وحدد النوع العلمى فى كتابة الطوبيقا بأنه الانتقال من المعلوم إلى المجهول أو «الانتقال من الجزئيات للكليات».

وإذا كانت الخلفية التاريخية العريقة قد ميزت المنهجين

الاستنباطى والاستقرائى وأدت إلى استقرارهما، فقد افتقد منهج العلوم الإنسانية تلك الميزة، ذلك أن الحاجة إلى قيام هذا المنهج لم يبدأ إلا حينما استقلت علوم الإنسان مع بدايات القرن ١٩ عن أمها الفلسفة وقتها فقط حاول باحثوها إيجاد منهج ملائم لها، لا هو بالمنهج الاستنباطى الخاص بالعلوم الرياضية، ولا هو بالمنهج الاستقرائى الخاص بالعلوم الطبيعية ذلك لأن الإنسان محور دراسة العلوم الإنسانية ليس عددا أو شكلا مما تدرسه علوم الرياضة، كما أنه ليس مادة من مواد علوم الطبيعة.. إنه روح بالأصالة: روح لاتقبل الكم أو القياس ولاتخضع للملاحظة أو التجريب. ورغم بساطة تلك الحقيقة إلا أنها قوبلت بالرفض من البعض، وأدى ذلك إلى قيام مايسمى بأزمة المنهج فى العلوم الإنسانية .

بدأت الأزمة حينما حاول الوضعيون رد الروح إلى المادة وبالتالى إخضاع علوم الإنسان إلى منهج علوم المادة، وازداد سعيرها لهيبا حينما حاول هؤلاء و غيرهم تحويل الإنسان إلى مجرد عدد أو شكل مما يمكن إخضاعه لمنهج الاستنباط، غير أن مجموعة ثالثة من الباحثين رأت ضرورة أن يتخذ كل علم إنسانى منهجا يخصه وحده دون غيره على ألا يكون هذا المنهج استقرائيا أو استنباطيا ،

ورغم ما فى هذا الرأى من وجاهة، ومن اعتراف باختلاف مناهج العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية إلا أنه أدى إلى اتساع نطاق الأزمة بدلا من حلها، ففى حين كان هدفنا تشييد منهج واحد يلائم العلوم الإنسانية جميعا، قادنا هذا الرأى إلى مناهج عديدة متضاربة

يقال إنها تخص العلوم الإنسانية كمنهج التحليل النفسى فى علم النفس، والمنهج الاستردادى فى التاريخ، ومنهج التأمل العقلى فى الفلسفة.. الخ.

ومن المدهش حقا أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً، كاتخاذ منهج التحليل النفسي والمنهج التجريبى والقياس فى علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخى والمنهج التجريبى الإحصائي فى علم الإجتماع، وهنا ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج وتم صياغتها على النحو التالى :

ألا يمكن أن نجد منهجا واحدا للعلوم الإنسانية كلها يختلف تماما عن المنهج المتبع فى العلوم الرياضية وعن المنهج المتبع فى العلوم الطبيعية، بحيث لاتترك العلوم الإنسانية فريسة للتشتت بين مناهج متنافرة وغير ملائمة؟.

كان هذا السؤال مهما، وظهرت عدة محاولات تستهدف تشييد ذلك المنهج تمثل أهمها فى تلك البادرة الدقيقة التى حددتها المدرسة الألمانية والتى اعتبرت الفهم Understanding محورا أصيلا فى منهج العلوم الإنسانية، فى مقابل المعرفة التجريبية التي تميز العلوم الطبيعية فبينما تكون المعرفة الأخيرة خارجية وتجريبية وكمية يتجه الفهم نحو أعماق الوقائع لكى ينفذ إلى المعانى والأفكار فيدركها إدراكا كيفيا خالصا. ومن المحال اخضاع المعرفة الكيفية إلى المعرفة التجريبية الكمية .

وحينما اتضح ذلك ، قام هجوم كبير على الوضعية ورجالها فى محاولة واضحة لمناصرة قضية الفهم كعملية محورية للمنهج الكيفى الخاص بالعلوم الإنسانية، وظهرت أثناء هذا الهجوم أسماء كثيرة منها: جورج زيمل والفرد ميركاندت، وسورين كيركجارد، وفلوريان زنانيكى، وروبرت ماكيفر، وبيتر سوروكين، ورايت ميلز، وفيرند ستارك ودلتاى، وريكوت، وفيبر، وريكمان، سوف نعرض فيما يلى لنماذج من تلك الإسهامات والمحاولات :

لقد ميز ديكارت بين النفس والجسم تمييزا حاسما، وقرر أن ميدان الروح يختلف تماما عن ميدان المادة إلا أنه لم يتحدث صراحة عن منهج خاص بعلوم الروح رغم أنه تحدث بوضوح عن منهج العلوم الطبيعية .

أما الفيلسوف الانجليزى چون استيوارت مل فلقد قام بنحت مصطلح العلوم الأخلاقية Moral Sciences الذى يرادف مصطلح Giestwissenschaften فى اللغة الألمانية لكي يدل به على العلوم الإنسانية التى نمت نموا كبيرا فى القرن التاسع عشر وتمايزت عن مجموعة العلوم الطبيعية.

ويعد الفيلسوف الدانماركى سورين كيركجارد الرائد الأول للمنهج الجديد فى العلوم الإنسانية فلقد طالب بضرورة دراسة الإنسان وفق مصطلحات علم الروح لا علوم الطبيعة، ورأى ضرورة وجود منهج يفيد فى دراسة الروح والباطن دراسة كيفية خالصة .

ولقد ذهب المفكر المثالى المحدث دلتاى إلى أنه من المحال تطبيق

مناهج العلوم الطبيعية على علوم الإنسان، فالعلوم الطبيعية تعالج وقائع Facts حسية بينما تعالج العلوم الإنسانية معانى Meanings باطنية وبينما تعتمد العلوم الطبيعية على التفسير Explanation تعتمد علوم الإنسان على الفهم Understanding ويختلف موقف ريكوت الكانطي المحدث عن موقف دلتاى فى تفرقته بين العلم والتاريخ، فالعلم يقوم بتحليل الطبيعة فى ضوء القوانين السببية، وهو بذلك يعالج ظواهر خالية من المعنى، أما التاريخ (كعلم إنسانى) فهو يقوم بتحليل الطبيعة كنمط للأحداث الفريدة التى تنبض بالمعنى والمغزى والمشاعر والأهداف.

أما ماكس فيبر فلقد ذهب إلى أن العلوم الإنسانية والتاريخية ذات خصائص فريدة، وهى جميعا تنشد الفهم، إلا أن الفهم عنده ليس مرادفا للحدس الوجدانى الغامض بل هو عنده فكرى وتحليلى وتفسير تنبوئى للسلوك .

وأخر محاولة فى إرساء منهج العلوم الإنسانية هى تلك التى قام بها ريكمان استاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن والذي وضع كتابا مهما فى هذا الصدد عام ١٩٦٧ قام كاتب هذه السطور بالاشتراك مع المرحوم الدكتور/ محمد على محمد بترجمته والتعليق عليه تحت عنوان «منهج جديد للدراسات الإنسانية» عام ١٩٧٩ وقد قدم ريكمان فى هذا الكتاب صورة نسقية متكاملة لمنهج العلوم الإنسانية معتمدا على مصطلحات المعنى والفهم والتعبير والسياق .

ثانيا : الفهم محورا للعلوم الإنسانية

علينا الآن أن نعرض لعناصر وعمليات هذا المنهج المقترح للعلوم الإنسانية وذلك من خلال نقاط محددة نتناول فيها وقائع العلوم الإنسانية واختلافها عن وقائع العلوم الطبيعية، ومعنى الفهم والشروط الابستمولوجية الثلاثة له، وطبيعة التعبيرات والسياقات .

تهتم العلوم الإنسانية بالوقائع Facts شأنها فى ذلك شأن العلوم الطبيعية، لكن وقائع العلوم الإنسانية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية اختلافا جذريا، فالواقعة بالمعنى المستخدم فى العلوم الإنسانية واقعة ينتجها موجود إنسانى يصدر عنه أحكام أخلاقية وله معايير وأهداف ومشاعر وقيم وليس للواقعة الطبيعية ذلك، ووقائع العلوم الطبيعية محسوسة وملموسة لها وجود ماثل أمام حواسنا .

ووقائع مباشرة تخضع للإدراك الحسى، أما وقائع العلوم الإنسانية فهى وقائع غير مباشرة تتمثل فى المعانى والمشاعر والأفكار التي ينفذ إليها وراء ماهو حسى نفاذا كيفيا.. ووقائع العلوم الطبيعية تخضع للتفسير الذى يحاول بيان العلاقات الخارجية بين الوقائع، أما وقائع العلوم الإنسانية فتخضع للفهم الذى ينفذ إلى المعانى الباطنة داخل الأشياء ، وأخيرا فإن وقائع العلوم الطبيعية يمكن التعبير عنها بلغة كمية بينما لاتخضع وقائع العلوم الإنسانية للكم إذ إنها ذات طبيعة كيفية خالصة.

والفهم Understanding ليس منهجا، وإنما هو لباب المنهج الكيفى، وهو عملية لاغنى عنها فى العلوم الإنسانية ، بل هو يطبع

هذه العلوم بطابعه، ولقد عنت المدرسة الألمانية بالفهم كأداة معرفية متميزة تختلف عن العمليات المعرفية المستخدمة فى العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على حد سواء، ذلك أن الفهم يحاول معرفة المشاعر والنوايا والمقاصد والرغبات والأفكار عن طريق النفاذ إليها خلال الكلمات أو التعبيرات أو السياقات ومن ثم يمكن تعريف الفهم بأنه «العملية المعرفية المتميزة التى تستهدف استيعاب المحتويات العقلية الكامنة فى كل تعبير» ولما كان الفهم عملية معرفية فهو يتصل من ثم بالمعرفة أو الابستمولوجيا، وهنا يجب أن نتوقف عند الشروط الابستمولوجية الثلاثة للفهم:

١) الألفة بالطبيعة الإنسانية :

بما أننا جميعا من طبيعة إنسانية واحدة فإنك تكون مألوفا لدى، كما أننى أكون مألوفا لديك. ومن ثم فإننى استطيع أن أفهمك، كما أنك تستطيع أن تفهمنى ، فالانتماء إلى نفس الطبيعة يجعل الفهم ممكنا وميسورا بيننا.

ونحن لانفهم بعضنا البعض في الآن الحاضر وحسب، بل إن هذا الفهم قد يمتد إلى البدايات الأولى للتاريخ، فنحن نفهم خطيئة آدم عليه السلام، وغواية حواء له، ونفهم معنى الأبوة التي دفعت سيدنا نوح إلى تكرار دعوته لابنه، ونفهم سير الأبطال وأهدافهم ونواياهم وطموحاتهم وأفكارهم كما نفهم معانى الحرب التى كتبها شكسبير فى روايته «روميو وجوليت» ومعانى الخطيئة والندم كما جاءت فى «أوديب ملكا» كما نفهم كل التراث الأدبى والثقافى للمفكرين والأدباء

وما ذلك إلا لأنناننتمى وإياهم إلى طبيعة إنسانية واحدة .

ونحن لانفهم الآخرين الذين يجاوروننا مكانيا وحسب، بل إننا نستطيع أن نفهم الإنسان فى كل مكان فنحن نفهم أفكار وطموحات الإنسان فى أمريكا، كما نفهم أيديولوجيات وأفكار الناس فى روسيا، ونحن نفهم الطقوس التي يمارسها الرجل البدائى فى أفريقيا، كما نفهم مكتشفات العلماء فى أوروبا .

٢) *معرفة الخلفية الثقافية :*

ويقصد بها الألفة بالقواعد والإصطلاحات التي تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات، فنحن لانفهم الجملة بدون معرفة قواعدها وتركيباتها، وبدون معرفة اللغة بوجه عام. غير أن الخلفية الثقافية قد تشير إلى أكثر من هذا، فهى تضم المعرفة بالاكتشافات العلمية، والإبداعات الفنية، والحركات الأدبية، والمؤتمرات والندوات والقضايا الاجتماعية، والشئون العسكرية، والأبعاد التاريخية والمواقف الأيديولوجية ، والظواهر الجغرافية والأمور السياسية، والتيارات الفلسفية وبديهى أنه كلما كان إلمام الإنسان بالخلفية الثقافية كبيرا كلما كان فهمه أعظم .

٣) *الوعي بالسياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات :*

وهذا الشرط واضح وضوحا لا لبس فيه، فالكلمة تكون أكثر دقة إذا فهمناها من خلال عبارة والعبارة تكون أكثر دقة إذا فهمناها من خلال فقرة، وفهمنا الفقرة من خلال كتاب، وفهمنا الكتاب من خلال العرف الأدبى والثقافى .

تعبير التعبيرات الوسيلة الوحيدة التى يحدث الفهم من خلالها، كما تعد من جهة أخرى الموضوع الوحيد للعلوم الإنسانية ، وللتعبيرات وظيفتان هما الكشف عن حالتنا العقلية والشعورية، وإحالتنا إلى شيء له مغنى أو إلى حادثة يشير إليها ويمثلها ومن ثم فالمظهر الفيزيقى تعبيرا إذا كشف عن حالة عقلية أو شعورية أو إذا أحالنا إلى معنى .

ويمكن تصنيف التعبيرات إلى تعبيرات اصطلاحية مثل الرموز الرياضية والإشارات الموسيقية وإشارات المرور، وتعبيرات طبيعية مثل الصيحة المعبرة عن الألم، ورفع اليد المعبرة عن التحية والسلام، والضحكة المعبرة عن السعادة وتعبيرات ثابتة مثل الحديقة المنسقة، والتمثال، والتعبيرات المتغيرة مثل التعبير عن الغضب، والتعبير عن الفرح، والتعبير عن الاستياء وتعبيرات بسيطة كالكلمة والإيماءة، وتعبيرات مركبة مثل قصيدة شعرية أو رواية أو مقالة .

والتعبيرات لايمكن أن تفهم إلا من خلال سياقاتها ولهذا يقترح ريكمان أن يتم تحديد العلوم المختلفة فى ضوء سياقات تعبيراتها، فكل علم يختص بسياقات تعبير تختلف عن سياقات علم آخر ومن الممكن أن تتميز السياقات موضوعيا إذا ربط السياق بين تعبيرات تتميز بأنها ذات محتوى عام مشترك، وتتميز تصنيفيا اذا ترابطت التعبيرات فيه على أساس التشابه مثال (كل التعبيرات الموسيقية) وتتميز وظيفيا اذا كانت التعبيرات فيه ذات علاقة تدخل فى بناء يخدم أغراضا معينة، كما تتميز تاريخيا حينما تتكون من سلسلة

زمنية من التعبيرات يؤثر فيها السابق على اللاحق تأثيرا كبيرا، وتاريخ الفلسفة خير مثال على ذلك وأخيرا تتميز وجوديا إذا تكونت من تعبيرات ذات موضوع واحد أو كيان يدوم فى زمان مثال ذلك كل ما يقوله الإنسان أو يفعله ويكون جزءا من حياته.

فالتعبير إذن دائما مايحدث فى سياق أو يتعلق بسياق أو عدد من السياقات لأن من طبيعته أن يشير إلى ما ورائه، وهذه الإشارة نفسها عبارة عن علاقة.

ثالثا: ملاحظات وتعقيبات نقدية

أثار المنهج الكيفى القائم كما أرساه ريكمان بصورته النهائية مستفيدا من الإسهامات السابقة عليه عددا من أوجه النقاش منها ما هو إيجابى ومنها ما هو غير ذلك، فلقد أكد إمكانية وحدة المنهج فى العلوم الإنسانية من حيث تطبيق المنهج الكيفى الذاتى عليها جميعا بلا استثناء كما قدم لنا يد العون فى تحديد خريطة علم المناهج بصورة واضحة جلية: المنهج الاستنباطى، للعلوم الرياضية، والمنهج الاستقرائى للعلوم الطبيعية، والمنهج الكيفى القائم على الفهم للعلوم الإنسانية وقد أعاننا ذلك على القضاء على مشكلة تخبط العلوم الإنسانية فى اختيار مناهج متعددة منها ماهو غير ملائم لها ومنها مالايتوافق مع طبيعتها ومنها ما يطمس غايتها .

وإذا كان الفهم يقتنص المعنى أو الفكرة أو العاطفة التى تقف وراء التعبيرات فإن ذلك يفترض صدق ما تحتويه التعبيرات من معان أو عواطف أو أفكار، لكن ذلك لايحدث عادة أو قل أنه لايحدث فى

حالات عديدة؟

فلقد بينت دراسات كثيرة أنه لاتعادل بين اللفظ وبين محتواه العقلى، كما بينت دراسات أخرى أن الفارق قد يكون كبيرا بين الاتجاه اللفظى والاتجاه الفعلى، فقد نفعل مالا نقوله، أو نفعل عكس ما نقول، أضف إلى ذلك أن اللغة ليست هى دائما خير تعبير عن الفكر، وأنها ليست الثوب الخارجى المضبوط له فى كل الأحيان، فهناك عبارات اجتماعية مبهمة، كما أن هناك عبارات قد تؤدى إلى إخفاء حقيقة الفكر أو إلى خداع الآخرين أو إلى التمويه على مشاعرنا الحقيقية وإخفاء عواطفنا الصادقة .

يبدو إذن أن مسألة «الفهم» ليست بهذه البساطة، إذ إنها تتطلب مهارات وقدرات خاصة تمكن صاحبها من الفهم الحقيقى الصادق لأفكار الناس وعواطفهم ومشاعرهم، لأجل هذا يدعونا «ريكمان» إلى اتباع مدخل متعدد الأبعاد نتمكن بفضله من النظر إلى الموضوع الواحد من زوايا فهم متعددة ويتخطى حدود المدخل الواحدى البعد بالإضافة إلى معرفتنا بالخفية الثقافية التي تمثل الشرط الثاني من الشروط الابستمولوجية للفهم، فبمثل هذه الخلفية وبالمدخل المتعدد الأبعاد الذى يضم مداخل نفسية وفكرية واجتماعية وسياسية وتاريخية نتمكن من التمييز بين التعبيرات الصادقة والتعبيرات المزيفة .

والمنهج الكيفي القائم على الفهم الذى يغوص إلى الباطن لكى يقتنص المعانى والأفكار يثير موضوعا مهما يتعلق بعلاقة هذا المنهج

الفينومينولوجى، والفينومينولوجيا فى صورتها الأخيرة عند هوسول تحاول إقامة منهج وصفى تصف فيه بإسهاب كل أنواع الموضوعات فى ماهياتها. البحتة لكنه لايقتصر على الوصف الخارجى للظواهر وإنما يتعمق الظواهر لكى يصل إلى وصف أعماقها وماهيتها، بيد أنه يقف عند حدود هذا الوصف فلا يحكم على شىء بل يقوم بما أسماه هوسرل «تعليق الحكم» وإذا نظرنا الآن إلى المنهج الكيفى كما قدمه «ريكمان» لرأيناه يتفق مع المنهج الفينومينولوجى بأنه ذاتى وينفذ إلى الباطن لاقتناص المعنى أو الماهية، غير أنه يختلف عنه فى أن المنهج الكيفى لايطالب «بتعليق الحكم» وإنما هو يقوم بعمليات الحكم فى نفس الوقت الذى يقوم بعملية الفهم، فنحن إذ نفهم نحكم فى نفس الحكم .

قد يقال إن المنهج الكيفى القائم على الفهم يلائم بعض العلوم الإنسانية لكنه لايلائم البعض الآخر خصوصا تلك التى تعتمد على مقولة الكم، ومن ثم فهو منهج لاينطبق على كافة العلوم الإنسانية. إن الرد على هذا القول يستلزم بيان كيف أن مثل تلك العلوم الأخيرة التى تعتمد على مقولة الكم هى علوم إنسانية، ومن ثم يجب أن تفهم وأن تخضع للمنهج الكيفى .

يرى «ريكمان» أن الاقتصاد دراسة إنسانية حيث إنه يعالج علاقات ذات معنى كما أن موضوعاته هى التعبيرات التى تشير إلى معان أو أغراض أو أهداف بالنسبة للأفراد والنقابات أو الأمم ويذهب إلى أن الأفعال والأهداف التي تقف وراء التعبيرات

الاقتصادية وتاثيراتها على الناس يمكن أن تفهم ومن ثم تكون بمثابة موضوع للعلوم الإنسانية .

ويذهب «ريكمان» إلى أن اقتصار الاقتصاد على تناول الحياة الاقتصادية فى ضوء آليات علية وإحصاءات تؤدى إلى نتائج مضللة إذا لم تلحق بدراسات أكثر شمولا من الدائرة الاقتصادية تتعلق بالإنسان الذى ينتج ويشترى ويستهلك وله متطلباته وآماله، واتجاهاته ، وأهدافه .

والواقع أن الاعتماد على لغة الاحصاءات والأرقام دون فهم مدلولات هذه الاحصاءات وتلك الأرقام هو أمر يقودنا إلى التمسك بقشور الاشياء دون النفاذ إلى لبابها، ويؤكد ريكمان أيضا على أن الجانب الاحصائي كثيرا مايقودنا إلى قنوات عمياء وهو جهد ضائع تماما اللهم إلا إذا تمكنا من فهم مدلولاته ومعانيه، وينتهى من تحليله هذا إلى أن التعبيرات الاحصائية ليست هى نهاية المطاف فى الدراسات الاجتماعية أوالسكانية أو الديموجرافية أو الإدارية، بل علينا أن نعتبرها مجرد رموز يجب أن نتعمق معانيها بالغوص فى باطنها فندرك حينئذ الأهداف والنوايا والأفكارالتى تقف وراءها، فالاقتصار على الجانب الاحصائي وحده هو اقتصار على أشباح خاوية من المعنى .

قد يقال أخيرا بأن المنهج العلمى المعاصر أو ما يسمى بالمنهج الفرضى يمثل حجر عثرة أمام تكوين خريطة علم المناهج بصورة محددة وواضحة على النحو الذى انتهى إليه رأينا هذا، وذلك من

حيث إن المنهج العلمى المعاصر يختلف اختلافات كثيرة عن المنهج الاستقرائي التقليدى كما عند بيكون ومل، وأدت هذه الاختلافات إلى إزالة الحدود بين الاستقراء والاستنباط وبالتالى إلى اهتزاز خريطة علم المناهج، والواقع أن هذا القول ينم عن تناول سطحى للأمور ونحن لانقبله لما يلى :

أ) إن المنهج العلمى المعاصر لم يرفض «العلية» تماما وإنما رفض أن يكون العالم كله خاضعا للعلية، هناك الآن علاقات علية وأخرى غير علية. ومن ثم فلقد وسع المنهج الفرضى دائرة العلاقات القائمة بين الظواهر، وستبقى العلية التى كان يعتمد عليها الاستقراء التقليدى لكنه لم يعتبرها العلاقة الوحيدة .

ب) كذلك لم يرفض المنهج العلمى المعاصر عنصر الملاحظة والتجربة وإنما وضعه فى ترتيب غير الترتيب الذى كان له فى المنهج الاستقرائى التقليدى، ففى حين أننا نبدأ بالملاحظة والتجربة ونعتبرها خطوة أولي فى المنهج الأخير، فهما يأتيان كخطوة ثالثة فى المنهج الفرضى أى يأتيان بعد تسجيل الفرض الصورى واستنباط نتائج منه .

ج) والمنهج العلمى المعاصر يستخدم الفروض العلمية شأنه فى ذلك شأن المنهج الاستقرائي التقليدى، بيد أن الرفض الذى كان يمثل الخطوة الثانية التى تلى خطوة الملاحظة والتجربة والذى كان يشير إلى مدركات حسية،أصبح فى المنهج العلمى المعاصر فرضا صوريا لايشير إلى مدركات حسية ويأتى سابقا على الملاحظة

والتجربة.

د) إن المنهج العلمى المعاصر يستهدف الوصول إلى قضايا كلية وهو نفس هدف الاستقراء التقليدى .

هـ) إذا كان المنهج العلمى المعاصر يستخدم الاستنباط الرياضى جنبا إلى جنب مع الخبرة الحسية بخلاف المنهج الاستقرائي التقليدى، فهذا لايعد فاصلا حاسما كما توهم البعض فالاستقراء Induction والاستنباط Deduction جزءان لعملية واحدة هى الاستدلال Inference أو هما كما يقال وجهان لعملية واحدة : وجه يمثل الاستقراء وآخر يمثل الاستنباط، يتجه الاستقراء من أسفل إلى أعلى من الجزئى إلى الكلى، بينما يتجه الاستنباط من أعلى إلى أسفل.. من الكلى إلى الجزئى، ورغم وجود هذه العلاقة بينهما إلا أن ذلك لم يمنع تمايزهما :

المنهج الاستقرائي للعلوم الطبيعية والمنهج الاستنباطى للعلوم الرياضية .

و) وبالإضافة إلى ذلك فنحن نستطيع أن نقرر بكل ثقة أن المنهج العلمى المعاصر لايمكن أن يقوم أو يستمر بدون المنهج الاستقرائى التقليدى ، فالمنهج الأول يعتمد على تفسير القوانين التى ما زالت محتاجة إلى تفسير أكبر لكن من أين أتت هذه القوانين؟ أنها لاتأتى إلا عن طريق المنهج الاستقرائى التقليدى .

ومن ثم فنحن نقول بأن المنهج الاستقرائي سيظل قائما كمنهج للعلوم الطبيعية حتى وأن استعان بالاستنباط، كما سيظل المنهج

الرياضى قائما كمنهج ملائم للعلوم الرياضية حتى وإن احتاج إلى الاستقراء، وهما معا لايصلحان للتطبيق على العلوم الإنسانية التي لايلائمها إلا المنهج الكيفى القائم على الفهم كمنهج وحيد لها وهذا هو الموقف النهائي لهذه الدراسة .

رابعا: منهج واحد للعلوم الإنسانية وطرائق بحث متعددة

الواقع أن القول بتعدد مناهج العلوم الإنسانية يمثل خطوة تراجعية تعود بنا إلي ما قبل ظهور ما يسمى بأزمة المنهج فى العلوم الإنسانية، تلك الأزمة التي تمثلت فى قبول بعض هذه العلوم للمنهج الاستنباطى أو للمنهج الاستقرائي ومن ثم ردت الإنسان إلى مجرد عدد أو مادة من مواد الطبيعة، كما تمثلت فى قبول بعضها الآخر لأكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضا جذريا، بحيث انتهى الأمر بالعلوم الإنسانية إلى وقوعها فريسة للتشتت بين مناهج عديدة متنافرة وغير ملائمة.

كان من المستحيل لمفكرى وعلماء مناهج البحث أن يديروا ظهورهم لتلك الإشكالية أو تلك الأزمة الناجمة عن تعددية المناهج فى العلوم الإنسانية فراحوا يبحثون عن منهج واحد لها جيمعا يلائم تلك العلوم من جهة ويختلف عن المنهجين الاستنباطى والاستقرائى من جهة أخرى، ووجدوا ضالتهم المنشودة في منهج الفهم الكيفى .

والمنهج بوجه عام، ومنهج الفهم الكيفى على وجه الخصوص رؤية شاملة ذات خطوط كلية تميط اللثام عن فلسفة معينة، وغايات محددة، وهو ينفذ فى كافة العلوم الإنسانية، ويطبعها بطابعه وروحه،

وفى هذا لايختلف علم إنسانى عن آخر .

وإلى جوار المنهج تستخدم العلوم الإنسانية طرائق أو أساليب بحث تستهدف إنجاز المنهج وتحقيق غاياته، من هذه الأساليب الأسلوب التاريخي، وأسلوب المسح الاجتماعي، والأسلوب الاحصائي ، وأسلوب العقلنة الخيالية، وأسلوب التحليل النفسي، والأسلوب التأملي، وأسلوب تحليل المضمون.. وأسلوب دراسة الحالة.. الخ. وتتفاوت العلوم الإنسانية من حيث استخدامها لأسلوب أو أكثر حسب اختلاف تعبيرات وسياقات هذا العلم أو ذاك، فالأسلوب الإحصائى يفيد فى علم الاقتصاد لكنه لايلائم الفلسفة، وأسلوب التحليل النفسى يفيد فى علم النفس لكنه لايكون كذلك فى علم الجغرافيا، وأسلوب المسح الاجتماعى يفيد فى علم الاجتماع لكنه لايلائم علم التاريخ. لكن ذلك لايمنع عددا من العلوم الإنسانية من استخدام نفس الطرائق أو الأساليب ، فأسلوب دراسة الحالة مثلا يمكن استخدامه فى علم الاجتماع، وعلم النفس والطب النفسى والخدمة الاجتماعية، وأسلوب تحليل المضمون يمكن استخدامه فى مجالات الصحافة والإعلام والأدب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ وعلم النفس، والأسلوب الإحصائى يمكن استخدامه في علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع، والاسلوب التاريخى يمكن استخدامه فى علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والجغرافيا فضلا عن علم التاريخ .

غير أن مانريد أن نؤكد عليه هو أن أساليب البحث وطرائقه

المستخدمة فى العلوم الإنسانية يجب أن تكون معبرة عن منهج الفهم الكيفى ومحققة لغاياته وأهدافه فالعلوم الإنسانية تستخدم الأسلوب الإحصائي، شريطة أن «نفهم» المدلولات والمعانى التى تقف وراء الأرقام فهما كيفيا: ذلك أن الاقتصار على الجانب الإحصائي هو اقتصار على أشباح خاوية من المعنى، إن طريقة تحليل المضمون Content Analysis يجب أن تعبر عن منهج الفهم الكيفى، وتتوافق مع عملياته وأهدافه، لا أن تتوقف عند تصنيف المضمون إلى: ماذا قيل؟ وكيف قيل؟ أو تسجيل الكلمات وعدها فى قوائم معينة، أو إحصاء العبارات التى تشير إلى أفكار معينة فى مجال تحليل معين، أو تعداد الشخصيات والمقالات أو الكتب والروايات أو البرامج الإذاعية والتليفزيونية، أو قياس المساحة والزمن كذكر عدد الصفحات والأعمدة والسطور فى المادة المكتوبة، والدقائق بالنسبة للبرامج الإذاعية والتليفزيونية. إن طريقة تحليل المضمون لو توقفت عند ما سبق ذكره فإنها تكون قد توقفت فى نفس الوقت عند القشور الظاهرية للأشياء بدلا من الغوص فى لبابها. إن عمليات الترميز والتصنيف والإحصاء والتعداد وتحديد وحدات المكان وآنات الزمان لايجب أن تكون هي نهاية المطاف، إنها البداية التي يجب أن نسبر أغوارها الدفينة وباطنها الكيفى بكل ما يحمله من دلالات ومعانى ومشاعر وقيم وأهداف .

ويجب ألا ننساق فى هذا الصدد وراء زمرة الباحثين السطحيين الذين حاولوا توجيه نظرنا نحو شكل التحليل أكثر من مضمونه،

ونحو ظاهرة الكمى أكثر من باطنه الكيفى.

كما لايجب إلا نقبل ذلك التعريف الذى جاء به بيرلسون ونصه أن «تحليل المضمون أسلوب فى البحث يهدف إلى الوصف الكمى الموضوعى المنظم للمضمون الظاهر» .

تبقى أساليب العقلنة الخيالية، ودراسة الحالة والتحليل النفسى، والأسلوب التأملى ، والأسلوب التاريخى، وواضح أنها جميعا ذات طابع كيفى خالص، وبالطبع يمكن أن يضاف إلى هذه الأساليب أوالطرائف أساليب أخرى شريطة أن تتفق مع جوهر منهج الفهم الكيفى وتحقق أهدافه وغاياته .

ليس ثمة مناهج عديدة إذن فى حقل العلوم الإنسانية بل هناك منهج الفهم الكيفى، وأن هذا لايمنع وجود طرائق بحث متعددة تدور فى فلك هذا المنهج وتعبر عن روحه العامة .

خامسا: الايديولوجيا وقضية الموضوعية فى العلوم الإنسانية

والواقع أن الدور الأيديولوجى بما يشتمل عليه من قيم وأفكار ورؤى، وبما يتضمنه من انحيازات ومشاعر ورغبات، وبما يرفعه من شعارات تخاطب العواطف والوجدان، يؤدى إلى عدم استقلالية الباحث عما يدرسه من قضايا وظواهر ومشكلات فتتدخل ذاته فى الموضوع ويصدر أحكاما قيمية وأخلاقية على ما يعيه أو يفهمه، وتتلاشى المسافة التي ينبغى أن تكون بينه وبين وقائع بحثه وفى هذا هدم للموضوعية ، وتقليل من مرتبتها .

هكذا تعصف رياح «الأيديولوجيا» جنبا إلى جنب مع «الذاتية»

وأحكام القيمة بأطروحة الموضوعية، أو تقلل منها فى أحسن الأحوال: الذاتية تقضى باتباع ميولنا وأهوائنا، مواقفنا الشخصية، ورغباتنا الفردية، وأحكام القيمة تسلبنا حيادنا الأخلاقى والقيمى، والأيديولوجيا تدفعنا إلى الانحياز لعقيدة فكرية، والتعصب لها، وصبغ الوقائع بصبغة معينة .

أما كلمة «الموضوعية» فهى تشير إلى الإلتزام بالموضوع مثار النظر، وتتناوله بالبحث والدراسة بعيدا عن تطلعاتنا وتحيزاتنا وآرائنا المسبقة ورغباتنا، ومن ثم فهى ترادف «الحياد» وتقابل «الذاتية» وتعبرعن القدرة على استبعاد المشاعر والعواطف عند تناول الوقائع وتفسيرها وعدم إصدار أحكام أخلاقية أو قيمية بشأنها .

لكن هل تحمل «الموضوعية» عند أنصار النزعة الطبيعية نفس المعنى الذى تحمله عند أنصار النزعة الذاتية؟

لقد حاول أنصار النزعة الطبيعية تحويل الكيف إلى الكم، والروح إلى المادة، محاولين بذلك العمل على احتذاء العلوم الإنسانية للعلوم الطبيعية، ومن ثم لايصبح هناك تفاوتا بين مفهوم «الموضوعية» فى كل من العلوم الإنسانية والطبيعية. ولقد مثل تلك النزعة خير تمثيل الوضعيون والوضعيون المنطقيون، والسلوكيون، والنقديون التجريبيون، وكل من سار على منوالهم .

ويمكن اعتبار محاولة اميل دور كايم Durkheim فى علم الاجتماع داخلة تحت هذا الإطار، فلقد نادى بضرورة تناول الوقائع أو الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء ، ومعالجتها من هذا المنظور

أي باعتبارها وقائع طبيعية، ولقد استعان في هذا الصدد بالاحصاء الذى أشاد بأهميته واستخدامه في دراسته عن الانتحار. أما أرنست ماخ Mach صاحب مذهب النقد التجريبى فلقد اجتهد فى إيجاد بناء منهجي واحد، يعتمد على الإحساسات وحدها، ويكون صالحا لأن يشتق منه كل بحث علمى سواء أكان هذا البحث فى ميدان الفيزياء أو الانثروبولوجيا أو علم النفس الخ.. فى حين حاول كارناب Carnap إيجاد أسلوب اختزالى ترد العلوم الإنسانية وفقه إلى أصولها الفيزيائية وعلى الأساس ذهب فيجل Feigl إلى أن علم النفس يمكن رده إلى الفيزياء كما يمكن رد علم الاجتماع إلى علم النفس وهكذا قل فى بقية العلوم. أما لندبرج Lundberg فلقد زعم أن ما نسميه بالإرادة والعواطف والرغبات والمشاعر وكل ما هو حسى ليست أكثر من «زوائد» لامعنى لها. وفى عام ١٩١٣ كتب واطسون Watson مقالا بعنوان «علم النفس من المنظور السلوكى» نبذ فيه الاستبطان كأسلوب للدراسة فى علم النفس، وذهب إلى أن السلوك الإنسانى يجب بحثه بنفس الأساليب المستخدمة فى الكيمياء والفيزياء وعلم الحيوان، أي بطرائق تجريبية حسية تتعامل مع السلوك الظاهر وحسب .

ولقد رأى هؤلاء جميعا وغيرهم ممن سار على دربهم أن الموضوعية فى العلوم الإنسانية يمكن أن تتحقق تلقائيا متى اتخذت هذه العلوم أساليب ومنهج العلوم الطبيعية بكل دقة واتقان. وهذا يعنى أن احتذاء علوم الإنسان لعلوم الطبيعة سوف يؤدى فى نظرهم

إلى تحقيق الموضوعية المنشودة فى العلوم الإنسانية. غير أن هذا الرأى قد قوبل بهجوم عنيف للأسباب التالية:

١) إن العلوم الإنسانية تختلف اختلافا بينا عن العلوم الطبيعية فى الموضوع والمنهج وأساليب البحث، فموضوع العلوم الإنسانية هى الوقائع التى ينتجها موجود إنسانى مزود بهيكل من القيم والمشاعر وليس لوقائع العلوم الطبيعية ذلك، وقائع العلوم الطبيعية حسية مباشرة بينما وقائع العلوم الإنسانية غير مباشرة وتتمثل فى المعانى والأفكار التى تقف وراء ما هو حسى مباشر. الوقائع الأولى تخضع للتفسير، والثانية تخضع للفهم، وتختلف العلوم الإنسانية أيضا عن العلوم الطبيعية من حيث المنهج ، فمنهج الطائفة الأولى من العلوم منهج الفهم الكيفى ، بينما منهج الطائفة الثانية هو المنهج الاستقرائي. وبالتالى تختلف أساليب البحث فى كل منهما تبعا لاختلاف المنهج والموضوع .

فكيف يمكن إذن رد العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية ؟

٢) تختلف العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه فى العلوم الإنسانية عن مثيلتها فى العلوم الطبيعية فهى علاقة داخلية فى الأولى خارجية فى الثانية .

٣) إن الإسراف واللهث وراء محاكاة العلم الطبيعي واحتذائه أدى إلى اختزال وتشويه ظواهر العلوم الإنسانية وتفريغها من خصوصيتها وعزلها عن سياقاتها التاريخية. كما أدى إلى التوجه نحو ما هو سطحى وبسيط مما يمكن إخضاعه للقياس والإحصاء

وإهمال ما هو كيفي وروحي وخلاق.

غير أن الذاتيين وقد اهتموا بالمعاني والأفكار والرغبات التي تقف وراء الظواهر والتي تنفذ إليها نفاذا كيفيا ذهبوا إلى أن المنهج الفينومينولوجي كما جاء عند «هوسرل» هو الأقرب إلى اتجاهاتهم، والمعبر عن موقفهم، والفينومينولوجيا في صورتها الأخيرة تحاول إقامة منهج وصفي تصف فيه بإسهاب كل أنواع الموضوعات في ماهياتها البحتة. بحيث لايكون هذا الوصف ظاهريا أو خاريجا أو حسيا، وإنما يكون وصفا متعمقا لباطن الظواهر، ومدركا لأعماقها الدفينة. بيد أن الذاتيين لايوافقون هوسرل في فكرته عن «تعليق الحكم» ذلك لأن الإنسان حين «يفهم» فإنه «يحكم» في نفس الوقت. ومن هنا جاءت إقامتهم لمنهج خاص بالعلوم الإنسانية وهو منهج الفهم الكيفي.

لايوافق أنصار هذا المنهج وعلى رأسهم «ريكمان» علي ما انتهت إليه الوضعية بكافة صورها. ورأوا في نقطتنا قيد البحث أن الموضوعية في العلوم الإنسانية لابد وأن تختلف عن مثيلتها في العلوم الطبيعية، وأن عدم قدرة هذه العلوم على التخلي عن الذاتية بمعانيها المختلفة تمثل ميزة تتميز بها تلك العلوم عن غيرها من العلوم الطبيعية. ومع هذا فنحن نستطيع أن نتحدث عن الموضوعية في مجال العلوم الإنسانية ولكن بمعنى يختلف عن مثيله في العلوم الطبيعية، إذ إن الموضوعية تشير في مجال العلوم الإنسانية إلى قدرتنا على إيجاد علاقة تربط كل حالة فردية بهيكل كلي من الأدلة

بحيث نصوغ في نهاية الأمر أنساقا ذاتية تمكننا من استبعاد الذات الفردية التى قد تفسد جزءا من البحث العلمى.

إن الوضوعية فى العلوم الإنسانية تجعلنا نتحدث عن نتائج أبحاثنا وفق ما انتهت اليه تلك الأبحاث لا وفق ميولنا ورغباتنا، ويقدم لنا ريكمان المثالين التاليين للتدليل على صحة رأيه هذا، يقول فى المثال الأول : «لو أن عالما اجتماعيا طبق استبيانا دقيقا على مائة فرد بهدف معرفة أهمية «شرب البيرة» فى حياتهم أوعدم أهميتها وانتهى الاستبيان إلى نتيجة مؤداها «أن شرب البيرة يمثل أهمية لهم جيمعا» فلا شك أن هذه النتيجة تتسم بالموضوعية، لكن افرض أن الباحث نفسه يكره شرب البيرة ويعتبر شربها بغير ذى أهمية للحياة الإنسانية ومع ذلك احتفظ بالنتيجة التي توصل إليها الاستبيان، ولم يصبغها برأيه الشخصى، فلا شك أن يكون ملتزما بأقصى درجات الموضوعية. والمثال الثانى يذكر فيه ريكمان أن المؤرخ الملحد الذى يدرس كتابات عصر مضى، يكون متسعا بأقصى درجات الموضوعية لو أنه وصل إلى النتيجة القائلة بأن الدين كان هو المحرك الأصلى لفهم ذلك العصر، لأنه كان كذلك فعلا.

على الباحث فى العلوم الإنسانية أن يجعل ذاته مستقلة عن دائرة البحث، وأن يجعل فهمه أووصفه غيرمحتاج لما يجعله مفتقرا للانضباط والدقة، وأن يجرد ذاته من الأحكام الاخلاقية والقيمية ، ويضرب لنا ريكمان مثالا يبين لنا فيه الفارق بين موقفين: موقف يكون فيه الباحث داخل دائرة البحث ويصبغه بصبغة أخلاقية، وآخر

يكون فيه الباحث خارج تلك الدائرة. فلو أننا كنا نتداول «هلتر» بالدراسة فإن صاحب الموقف الأول سوف يدينه أو يهاجم أفعاله وتصرفاته ويصدر فى النهاية حكما أخلاقياعليه باتهامه وإدانته، أما صاحب الموقف الثانى فسوف يكتفى بوصف أفعاله دون أن يصدر عليه حكماً أخلاقياً لكن باحث العلوم الإنسانية هو إنسان قبل أى شىء وهو باعتباره كذلك لايمكنه تحاشى رغبته فى استخدام أبحاثه للتحذير من الشر والدعوة إلى تبنى ما يكون قريبا إلى قلبه أو أيديولوجيته .

فنحن كديقمراطيين نكون شغوفين ببيان أن التاريخ يكشف عن شرور الطغيان، ونحن كمحافظين نكون بحاجة إلى بيان النتائج اللاأخلاقية الناجمة عن الطفرات الراديكالية المفاجئة .

ويرى ريكمان أنه على الرغم من أننا نرغب فى التعبير عن اعتقاداتنا الأخلاقية إلا أن ذلك لايعنى صبغ أبحاثنا بتلك الاعقتادات، فحين يعبر المؤرخ مثلا عن اعتقاداته اللاأخلاقية فإنما يكون ذلك من أجل استبعاد تأثيرها عن بحثه ، أو لكى يسمح لقارئيه أن يسقطونها من حسبانهم عند قراءته. إن على المؤرخ كباحث أن يميز بين واجب الوصف المفروض عليه من الوقائع ذاتها وبين مسئولية الحكم الذى يصدر منه باعتباره إنسانا .

وهكذا تؤدى الممارسة فى إطار العلوم الإنسانية إلي تدعيم الفعل بين ماهو ذاتى وبين ماهو موضوعى ، وبالتالى تدعيم الاتجاه الموضوعى.

أهم مراجع ورقة العمل

مراجع عربية :

١) د. عبد الباسط عبد المعطى - البحث الاجتماعى محاولة نحو رؤية نقدية لمنهجة وأبعاده- دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٧.

٢) د. على عبد المعطى محمد - رؤية معاصرة فى علم المناهج - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧.

٣) د. صلاح قنصوه - الموضوعية فى العلوم الإنسانية - دار التنوير والنشر بيروت - ١٩٨٤.

مراجع أجنبية:

1) Buchahl : Induction and the Scientific Method, Mind 60, 1951

2) Navilles E : The Structure of Science , London, 1961.

3) Rickman ' H: Understanding and the Human Studies, London 1967.

المنهج الفلسفى

د. حسن حنفى(*)

(١) فيلسوف مصرى معروف، أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة .

١- مقدمة : المنهج عند كل الشعوب

ليس المنهج حكرا على شعب بعينه أووقفا على ثقافة بعينها أو قصرا على حضارة خاصة بل هو عام عند كل الشعوب، ومعروف فى كل الثقافات، وموجود فى كل الحضارات. ونظرا لسيادة الثقافة الغربية فى العصور الأوروبية الحديثة وتصدرها ثقافات العالم حتى أصبحت مركزا، وثقافات العالم محيطها، ارتبط المنهج بالفلسفة الغربية، وتوارت المناهج فى الفلسفات الأخرى شرقية أو إسلامية وذاعت المناهج الغربية خارج حدود الغرب فى الثقافات الشرقية والإسلامية. فازدوجت الثقافات اللاغربية بين مناهج غربية ومناهج وطنية، مناهج تجزيئية ومناهج كلية، مناهج تميز بين المنهج والموضوع ومناهج توحد بين المنهج والموضوع، مناهج صورية عقلية أو تجريبية من أجل المعرفة ومناهج تجمع بين المعرفة والسلوك، بين النظر والعمل، بين الحق والخير والجمال، بين المعرفة والأخلاق والفن، بين الفكر والحياة .

ينشأ المنهج فى كل حضارة بناء على ظروفها وتاريخها، ومن خلال نشأتها وتطورها، وطبقا لتكوينها وبنيتها . فالحضارة الغربية عرفت بأنها حضارة المنهج لأنها فى نشأتها القديمة سادها المنطق اليونانى خاصة فى العصر الوسيط بعد التحول من أفلاطون فى عصر آباء الكنيسة إلى أرسطو فى العصر المدرسى. وفى بداية العصور الحديثة بدأت القطيعة المعرفية بين الحاضر والماضى بعد أن اكتشف العقل وصدقته التجربة تعارض- أرسطو والكتاب المقدس

وأقوال الآباء مع مراجعة العقل والحس وتم إسقاط الغطاء النظرى المعرفى الموروث، وأصبح الواقع عاريا من كل نظرية فتدخل العقل من أجل إيجاد بديل نظرى والبحث عن طرق بديلة للمعرفة اعتمادا على اليقين الجديد، يقين البداهة العقلية والبداهة الحسية. ولولا هذه القطيعة المعرفية فى بدايات العصور الحديثة لما نشأت هذه الثورة المنهجية، ولما بدا بهذا القلق المنهجى فى الغرب .

أما فى الشرق، فى الصين واليابان والهند، فلم تحدث هذه القطيعة المعرفية بين الماضى والحاضر، وتبنت الثقافات الشرقية نموذج التجديد والتطوير الذى انتهى إلى استبقاء المناهج التقليدية فى الحياة الخاصة وتقليد المناهج الغربية فى الحياة العامة. ولما كان الفن والصناعات الحرفية التقليدية وأساليب الحياة اليومية أقرب إلى الحياة الخاصة فقد سادتها المناهج التقليدية التى لا تهدف إلى المعرفة وحدها بل أيضا إلى السلوك ، جامعة بين النظر والعمل، بين النظرية والتطبيق، ارتبطت الأصالة بالمناهج التقليدية، وارتبطت المعاصرة بالمناهج الغربية. أصبحت المناهج التقليدية تعبيرا عن الهوية، والمناهج الغربية تعبيرا عن الاختلاف، الأولى تعبير عن الصدق والثانية تحقيق للمنفعة. ولفظ المنهج ليس غريباعلى الحضارة الإسلامية، فقد ظهر فى كتاب ابن رشد الشهير فى صيغة الجمع – الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، والتعريف بما وقع فيها من الزيغ والبدع المضللة» «فالمنهج» هنا يفى الطريق، و«مناهج» طرق الاستدلال فى فهم العقائد والتى تؤدى إلى التمييز بين الفهم

الصحيح والفهم الفاسد، بين العقيدة والبدعة، ليس فى الرياضيات والعلوم الاستنباطية أو فى الطبيعيات والعلوم التجريبية. كما استعمل لفظ نهج فى الثقافة الإسلامية كماهو الحال فى «نهج البلاغة» المنسوب إلى على بن أبى طالب. ويعنى أيضا الطريق ، طريق الكلام. والكلام ليس مجرد صوت بل هو تعبير عن فكر ورؤية ومعايير للسلوك .

كما أن اللفظ ورد فى القرآن الكريم «ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا»، واستعمل لفظ المنهاج وليس المنهج. فالمنهاج هو الطريق أوالشريعة فى حين أن المنهج مجرد طريقة فى الاستدلال. المنهاج أسلوب حياة، نظام أخلاقى واجتماعى وسياسى فى حين أن المنهج أقرب إلى طريقة النظر، وفى الحضارات الشرقية كان المنهج والموضوع شيئا واحدا . فلا يوجد منهج مستقل عن الموضوع، آلة خارجة عن تطبيقها فى ميدان. المنهج موضوع متحقق، والموضوع منهج مطبق. والوعى متحد بهما معا . الموضوع يفرض منهجه من ذاته، والمنهج يفرض موضعه من ذاته. هكذا كان يفعل صانع الخزف فى الصين، (الرسام فى اليابان، والمثّال فى الهند، والفنان فى مصر القديمة.. وحدة المنهج والموضوع وحدة مبدئية، وحدة الذات والموضوع، الطريق والغاية، المقدمة والنتيجة، البداية والنهاية، الخلق والبعث. إذا وضع المنهج وُضع موضوعه، وإذا وُضع الموضوع فُرض منهجه .

وفى الغرب بدأ المنهج معاديا للموضوع لأن الموضوع كان معاديا

للمنهج قبل العصور الحديثة. كان الإيمان تسليما دون برهان، وكان أرسطو المعلم الأول، المعصوم الذى لايخطىء ، وكانت أقوال الآباء أيضا تعبيرا عن تجسد الروح القدس فى التاريخ. ثم انهار كل ذلك بعد إعمال العقل والالتجاء إلى التجربة. ونشأت المناهج معادية لموضوعاتها فى بداية العصور الحديثة. العقل متربص باللاعقل، والتجربة معادية للنظر . المنهج ضد الموضوع، والموضوع ضد المنهج، العقل لا يقبل إلا ما كان عقليا متسقا مقدماته مع نتائجه . ووجد ضالته فى الرياضيات التجربة لاتقبل إلا ما كان محسوسا قابلا للقياس فوجدت فى المحسوسات والمجربات والظواهر الطبيعية ضالتها. مقياس الصدق فى المنهج العقلى اتساق المقدمات مع النتائج، وفى المنهج التجريبى تطابق الحكم مع التجربة. كان الموضوع ضد المنهج فى العصر الوسيط فأصبح المنهج ضد الموضوع فى العصور الحديثة. ولم يقع الوئام بين المنهج والموضوع إلا أخيرا فى الظاهريات فى نهاية العصور الحديثة، والحضارة الغربية على وشك الأفول، والعصور الحديثة على وشك غلق الأقواس

وفى الحضارة الإسلامية تتأكد وحدة المنهج والموضوع كما هو الحال فى الحضارات الشرقية. فالوحى وهو الموضوع الأول ها هو فى نفس الوقت منهج العقل والبرهان نظرا لموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. والطبيعة أيضا الموضوع الثانى لها تخضع لنظام العقل من خلال القانون. فنسق الطبيعة هو نسق العقل. والنظر فى

الآفاق وفى النفس يؤدى إلى نفس الحقيقة، وفى الأرض وفى النفس آيات اليقين . والتأويل هو أداة الربط بين العقل والوحى إذا ما بدا تعارض ظاهرى بينهما من أجل التأكيد على وحدة المنهج والموضوع.

ثانيا: المنهج فى الغرب:

ارتبط المنهج فى الغرب بمنطق اليونان بحيث لم يعد هناك فرق بين المنهج والمنطق. المنطق هو منهج الفلسفة لما كانت الفلسفة هى علم البرهان، ولما كان الغالب على منطق اليونان منطق القضايا الذى يقوم فى معظمه على الشكل وليس على المضمون كان مقياس الحقيقة فيه اتساق النتائج مع المقدمات، يكون العلم صحيحا ما دامت أشكال الفكر فيه صحيحة . وقد لخص المسلمون ذلك فى قولهم: المنطق أما تصور أو تصديق. والتصور ينال بالحد، والتصديق ينال بالبرهان. أما الاستقراء فقد كان هامشيا فى المنطق بالرغم من الاتجاه الطبيعى التجريبى عند أرسطو .

وكان المنطق نوعين، وكما لخص المسلمون، منطق اليقين: المقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان، ومنطق الظن: الجدل، والسفسطة، والخطابة ، والشعر كان الفلاسفة يستعملون منطق اليقين فى حين كان السوفسطائيون والخطباء والشعراء يستعملون منطق الظن. ولم تكن هناك غلبة لأحد المنطقين على الآخر، وكانت ممارسة التفلسف والكلام سابقة على تطبيق قواعد المنطق. كانت هذه القواعد مجرد تجريد للتفكير والكلام بالفعل، فلما جاء عصر آباء الكنيسة فى القرون الخمسة الأولى كان منطق الظن هو السائد على

منطق البرهان. فقد كان آباء الكنيسة الأوائل في معظمهم خطباء، وكانت الخطابة أحد وسائل الدفاع عن الدين عند المحامين والوعاظ الآباء. كانت أساليب البلاغة وطرق البيان أسرع في الإقناع، وأقوى في الإيحاء، وأقرب إلى الثقافة الشعبية وإيمان العوام. وقد قوى ذلك اعتماد عصر الآباء على أفلاطون الذي تسود فلسفته الأسطورة والشعر وفنون الأدب والبلاغة.

وفي العصر الوسيط المتقدم من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر أو المتأخر من القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر نحو المنطق من منطق الظن إلى منطق البرهان، ومن الجدل والسفسطة والخطابة والشعر إلى المقولات والعبارة والقياس والبرهان. فقد تحول الاختيار من أفلاطون إلى أرسطو بعد أن اكتشفه بويتيوس في القرن الخامس في نهاية العصر الكلاسيكي، وقام بشرحه وتقديمه للناس. وكان لترجمة الفلسفة الإسلامية، أثر كبير في هذا التحول من الخطابة إلى البرهان، ومن الإقناع إلى الاستدلال. فقد قدم الإسلام نموذج وحدة الوحي والعقل والطبيعة في مقابل النموذج السائد مفارقة الوحي للعقل والطبيعة وكبديل عنه.

سادت – العصر الوسيط الفنون – الحرة السبعة: الثلاثي، المنطق والنحو والبلاغة، والرباعي: الحساب، والهندسة ، والموسيقى، والفلك.. ومن الثلاثي ساد المنطق على النحو والبلاغة، وفي الرباعي ساد نظام العقل تحت تأثير علماء المسلمين. كان المنهج هو التلقين والتعليم من أجل اعطاء ثقافة العصر. ثم بعد ذلك يبدأ الجدل دفاعا عن العقيدة

والنقاش بين الخصوم كما هو الحال في جدل المتكلمين .

وأضاف العصر الوسيط على المنهج الاستدلالي القديم منهج التأويل كما بدا في نظرية المعاني الأربعة للنص الديني: المعنى الحرفي، والمعنى المجازي، والمعنى الأخلاقي ، والمعنى الروحي. أصبح المنهج في مواجهة موضوع وهو الكتاب المقدس بعد أن كان في مواجهة عقيدة في عصر الآباء أو في مواجهة نفسه عند اليونان. ونشأ الصراع بين أنصار المعنى الحرفي من ناحية وأنصار المعاني المجازية والأخلاقية والروحية من ناحية أخرى كما هو الحال بين الأشاعرة والمعتزلة أو بين المتكلمين والفلاسفة دفاعا عن اللفظ حتى ولو أدى إلى التشبيه أو دفاعا عن المعنى حتى ولو أدى إلى التنزيه .

وفي العصور الحديث بدأ المنهج في التطور بعد القطيعة المعرفية بين الماضي والحاضر، ورفض المصادر القبلية للمعرفة، الكتاب المقدس، وأقوال الآباء، وأرسطو، وبطليموس، بدأ العقل يواجه نفسه، ما مقياس الصدق؟ ويواجه الطبيعة ما مقياس التحقق؟ وبدأ الوعي الأوروبي يضع نفسه منهجيا على نحو ثنائي: منهج عقلي ومنهج تجريبي . الأول مستنبط من الرياضيات والثاني مستقى من العلوم الطبيعية. أسس الأول ديكارت ، والثاني بيكون.

قام المنهج العقلي على نقطة بديهية هي الكوجيتو «أنا أفكر فأنا إذن موجود» ولكي يكون الفكر صحيحا عليه اتباع قواعد أربع : الأولى الوضوح والتميز في إدراك الأشياء، الشيء الواضح بذاته، المتميز عن غيره والثانية التحليل، تحليل الأشياء لو كانت مركبة من

أجل إدراك كل جزء منها على حدة بوضوح وتميز. والثالثة التركيب تركيب الأجزاء فى كلها الأول. والرابعة المراجعة للتأكد من صحة القواعد وحسن التطبيق وعدم الخطأ أو النسيان. ويسبق ذلك الشك فى كل الموروث من أجل تطهير العقل من كل التلقين السابق وتقليد القدماء.

وقام المنهج التجريبى على نقطة بديهية أخرى هى أن الحواس مصدر للمعرفة وأن صدق الحكم فى مطابقته للواقع من خلال الحواس، وبالتالى تم استبعاد كل مالا يمكن التحقق من صدقه فى الواقع المشاهد والعالم المدرك. ويتم ذلك بعد تهطير الذهن من أوهام الجنس وكل ما يتعلق بأوهام الإنسان من حيث هو كذلك، ومن أوهام الكهف وكل ما يتعلق بالمزاج الفردى، ومن أوهام السوق وكل ما يتعلمه الفرد من الناس دون التحقق من صدقه، ومن أوهام المسرح وهو ما تراكم عبر المعارف التاريخية الطويلة من الروايات والمرويات.

ثم جاءت مرحلة ثانية فى الفكر المنهجى الغربى عندما تحول العقل إلي جدل، والتجربة إلى تحليل. فقد كان العقل فى القرن السابع عشر صوريا رياضيا فارغا ثم تحول إلى خطابة ومقال والتثوير للجماهير فى القرن الثامن عشر عند فلاسفة التثوير . فقامت الثورة الفرنسية، ومن ثم برز العقل الجدلى القادر على إدراك التناقضات فى الفكر بين الملكية والثورة، بين الشىء ونقيضه. وتأسس المنهج الجدلى عند هيجل من أجل الكشف عن التناقضات فى الفكر والواقع، فى العقل والتاريخ، واستطاع المنهج الجدلى فهم

كل شيء وتركيب كل تناقض، ثم تحول على يد ماركس إلى جدلي مادي في المادية الجدلية راداً الروح إلى المادة بعد أن ردها هيجل إلى الروح، كما تحول على يد انجلز إلي جدل الطبيعة بعد رد العقل إلى الطبيعة ثم حدث رد فعل عليه في المنهج التحليلي من أجل العودة من جديد إلى الجزء لا الكل وإلى المتناهي في الصغر وليس المتناهي في الكبر. فالتحليل رد فعل على التركيب. وطبّق التحليل المدركات الحسية فنشأت الوضعية، كما طبق في اللغة فنشأت الوضعية المنطقية . ثم تحول التحليل من مجرد منهج إلى فلسفة في الفلسفة التحليلية. وقد راجت حتى أصبح العصر كله عصر التحليل، والحضارة الغربية كلها حضارة التحليل .

وفي المرحلة الثالثة بدأ الوعي الأوروبي يتجاوز ثنائيته المنهجية الأولى المنهج العقلي والمنهج التجريبي ، وثنائيته المنهجية الثانية المنهج الجدلي، والمنهج التحليلي إلى وحدة المنهج، المنهج الظاهراتي أو المنهج الشعوري الذي يحلل الظواهر باعتبارها تجارب حية في الشعور. فالظاهرة معنى، يدركه الشعور إدراكا مباشرا لتحويل هذا المعنى إلى ماهية. ويتكون هذا المنهج من ثلاث خطوات الأولى التوقف عن الحكم على الاشياء المادية الموجودة في المكان، خارج الشعور قبل أن تتم عملية الإدراك، ووصفها بين قوسين ، وإخراجها خارج دائرة الانتباه. والثانية بناء الماهية في الشعور وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل،و من المكان إلى الزمان . فيتحول الخارج إلى الداخل ويصبح الشعور ذاتا وموضوعا في نفس الوقت قصداً

متبادلا بين قالب الشعور ومضمون الشعور، بين العقل والتجربة، ثم تأتى التجربة المشتركة من أجل إعطاء اليقين لتحليل الشعور الفردى.

فالموضوعية إنسانية وليست تجريبية ،اتفاق الماهية بين الذوات وتطابق التجربة مع الآخرين. والثالثة الإيضاح حتى لاتختلط الماهيات. فالظاهريات أيضا نظرية فى الوضوح فى النهاية وليس فى البداية ، بعد عملية الإيضاح .

وفى المرحلة الرابعة والأخيرة عاد الفكر المنهجى الغربى إلى ثنائيته العدمية من جديد فى المنهج البنيوى الذى أراد التركيب من جديد، تركيب الظواهر فى بنيات صورية مجردة فى الذهن أم فى الواقع ثم فى المنهج التفكيكى الذى أراد تفكيك البنية والانتهاء إلى لا شىءواتجه المنهج البنيوى إلى اللغة والأساطير والفكر البدائى كما وضح ذلك فى الانثروبولوجيا. ثم تحول إلى علم النفس والتحليل النفسى، وتاريخ العيادات النفسية والجنون ودراسة المرضى والمهمشين والخارجين على القانون .

ثم حدث رد الفعل الأخيرعلى البنيوية فى المنهج التفكيكى الذى يريد إنهاء العقل وآلة العقل والانتهاء إلى لا شىء. فالفكر كتابة، والكلام صوت، والمعنى حرف، والأشياء كلمات، والوجود عدم . انتهى التكريب والنظام والنسق إلى يمر رجعه ، ولم يعد يبقى إلا التحليل والفوضى والعدمية. ينخر التفكيك فى كل شىء حتى لايبقى ما يفككه فيفكك ذاته ، وينتهى العالم كما بدأ أول مرة دون بحث أوحساب .

ثالثاً: المنهج عند المسلمين

استعمل المسلمون كلمة طريق ، وغالباً فى صيغة الجمع «طرق للدلالة على المنهج والمناهج فى «طرق النظر» ، بالرغم من استعمال ابن رشد للفظ «مناهج» وعلى بن أبى طالب لفظ «نهج القرآن الكريم لفظ «منهاج».

ظهر المنهج عندالمتكلمين فى نظرية العلم، المقدمة الأولى فى علم الكلام، إجابة على سؤال كيف أعلم؟ تستبعد الشك والظن والوهم والجهل والتقليد، وستبقى العلم كمطابقة مع المعلوم. والعلم بديهى ضرورى أو استدلال نظرى. والطريق اليه النظرة. فالنظر الصحيح يفيد العلم. والنظر واجب بالسمع والعقل. بل هو أول الواجبات. وطرق النظر: التعريف، والاستدلال، والقياس، وقياس الغائب على الشاهد أو التمثيل. والمقدمات قد تكون قطعية أو ظنية .والأدلة نقلية أو عقلية. والدليل النقلى وحده ظن لأنه يعتمد على اللغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، والظاهر والمؤول ، والمجمل والمبين، وقد ظهر هذا المنهج بوضوح فى مشكلة العقل والنقل بين المعتزلة والأشاعرة، العقل أساس النقل عند المعتزلة لذلك وجب التأويل فى حالة التعارض حفاظا على التنزيه، والنقل أساس العقل عند الأشاعرة ولو أدى ذلك إلى التشبيه. وفى كلتا الحالتين المنهج الكلامى منهج دفاعى، يعقل الإيمان ولا يتساءل عنه. كل فرقة تجادل فى فهمها وتأويلها العقائد دفاعا عن نفسها وهجوما على الفرق الأخرى. فتحول الجدل إلى مقارعة للخصوم من أجل الانتصار

عليهم وإثبات الفرقة الناجية فى مقابل الفرق الضالة. لذلك ذم الفقهاء الكلام والمتكلمين، وأدانوا الجدل والمجادلين اعتمادا على نقد القرآن للجدل، «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا».

ثم حول الفلاسفة الجدل إلى برهان... واستعملوا المنطق طريقا إلى اليقين، وأصبحت المتحولات والعبارة والقياس مقدمات إلى البرهان فإذا ما نقص البرهان ظهر الجدل والسفسطة والخطابة والشعر.وقد أحكم الفلاسفة المنهج العقلى البرهانى وعرف ابن رشد الفلسفة بأنها النظرفى الموجودات بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان، ولم تعد الفلسفة بحاجة إلى تبرير الدين كما كان الحال فى علم الكلام لأن الفلسفة والدين حقيقة واحدة وغاية واحدة وان اختلفا الطريق إلى الفلسفة عن طريق العقل، والدين عن طريق الوحى كما بين الكندى.وفى حالة التعارض فإن التأويل يدرأ هذاالتعارض ، فلقد تم التعبير عن الوحى مجازا من أجل مخاطبة أكبرعدد ممكن من الناس بصرف النظر عن مستوى تعليمهم . أما الخاصة فهم القادرون وحدهم على البرهان. وأصبح العقل مركز كل شيء، الله العقل الفعال، والإنسان العقل المنفعل أوالعقل بالقوة أو العقل بالملكة أو العقل المستفاد حتى يصير عقلا بالفعل.والإنسان حيوان ناطق، وأهم قوة فى النفس القوة الناطقة.

ثم حدث رد فعل على هذه العقلانية الشاملة، الجدلية عند المتكلمين والبرهانية عند الفلاسفة فى منهج الذوق عند الصوفية، الذوق فى مقابل النظر، والإشراق فى مقابل الاستدلال، والقلب فى

مواجهة العقل، والبصيرة فى مواجهة البصر. فالمعرفة على مستويات. المعرفة الحسية من خلال الحواس وتعطى ظاهر الموجودات. ثم المعرفة العقلية من خلال العقل وتعطى صورة الموجودات، والمعرفة الكشفية من خلال القلب وتعطى حقيقة الموجودات الأولى علم اليقين، والثانية حق اليقين، والثالثة عين اليقين، وهو منهج عملى قبل أن يكون نظريا.. يقوم أولا على الرياضات والمجاهدات قبل أن يكشف الله الحجاب. يبدأ بالطريقة كى يصل إلى الحقيقة.والناس على مراتب فى العلم،العامة ولهم المحسوسات، والخاصة ولهم المعقولات، وخاصة الخاصة ولهم الدوافع والطوالع والدوافع. ويتكون الطريق من الأحوال والمقامات. فالأحوال تحصل من عين الجود،و المقامات ببذل المجهود، الأحوال علامات على الطريق تنبىء السالك بعبور المرحلة. وهى علامات مزدوجة بين السلب والإيجاب مثل الخوف والرجاء الهيبة والأنس، السكر والصحو والفقد والوجد، السلب عندما يعبر إلى المرحلة التالية ، والإيجاب بعد أن يتعود عليها، والمقامات مثل التوبة ، الشكر،الفقر، الزهد، الرضا، الصبر، التوكل، الورع، الفناء. المنهج الصوفى إذن منهج صاعد ، طريق إلى الله، إسقاط الأوصاف الدنية والتحلى بالأخلاق الإلهية. فلا يرى الصوفى إلا بعين الله مثل وحدة الشهود ثم يصبح صعود الله والعالم شيئا واحدا كما هو الحال فى وحدة الوجود .

ثم جاء رد فعل على هذا كله فى المنهج الأصولى فى علم أصول الفقه الذى يرفض أن يجعل المنهج مجرد جدل أونظر بل هو فهم

علمي لتحقيق الشرع، وليس العمل هو الطريق الصوفى، فهو طريق فردى ذاتى، محفوف بالمخاطر، يعني بالتأويل، ويترك التنزيل، يصعد بالإنسان إلى الله دون أن ينزل بالشرع إلى العالم. ويقوم المنهج الأصولى على وضع منطق للأفعال يسمى الأحكام التكليفية وجعلوها خمسا . الفرض أوالواجب وهو الضرورى إيجابا وعكسه المحرم أو المحظور وهوالضرورى سلبا، ثم المندوب وهو الاختيارى إيجابا وعكسه المكروه وهو الاختيارى سلبا، وما بين الإيجاب الضرورى والاختيارى والسلب الضرورى والاختيارى هناك الحلال أو المباح، الطبيعى الذى تكمن الشرعية فى وجوده ،البراءة الأصلية والنظرة الأولى. هذه الأحكام التكليفية الخمسة من جهة الفاعل تقوم على أحكام وضعية خمسة أخرى من جهة ميدان الفعل. فكل فعل له سبب، وشرط ، ومانع ، ويؤدى عزيمة أو رخصة، ويكون صحيحا أو باطلا، السبب مثل الصلاة للتقوى، والشرط مثل الوضوء، والمانع مثل الحيض ، والعزيمة وقوفا والرخصة قاعدا أومستلقيا، والصحة عدد الركعات والبطلان الزيادة عليها أو النقصان منها فالفعل حر له عدة مستويات من الوجوب ويتحقق في ميدان متشابك فى عالم ضرورى.

ويقوم منطق الفعل من أجل تحقيق المقاصد، مقاصد الشارع ومقاصد المكلف ومقاصد الشارع أربع: وضع الشريعة ابتداء تعبيرا عن المصالح العامة فالمصلحة أساس التشريع، ثم وضع الشريعة للامتثال أى للاقتناع الحر، ثم وضع الشريعة للإفهام أى لفهمها دون إجبار وأخيرا وضع الشريعة للتكليف أى للتحقيق كنظام طبيعى

مثالى للعالم.

ومن أجل الحصول على هذه الثمرة يطبق منطق اللغة المزدوج على مصادر الشرع الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع والقياس مثل: الظاهر والمؤول، المحكم والمتشابه، المجمل والمبين، المطلق والمقيد، العام والخاص، الامر والنهى لبيان أبعاد النص المختلفة كصورة فنية أو كتعدد فى المواقف أو كتوضيح لمعنى أو كتطبيق على حالة خاصة فردا أو جماعة أو توجيها لفعل إيجابى أو سلبى ويؤخذ فى الاعتبار أيضا السياق، لحن الخطاب، وفحوى الخطاب، والمسكوت عنه، ما لم يصرح به الشرع إلا بالإشارة .

أما مصادر الشرع فالكتاب الذى أعطى الوحى فيه، فى المكان بدليل أسباب النزول، وفى الزمان بدليل الناسخ والمنسوخ، والسنة أول تطبيق للوحى فى التاريخ كتجربة نموذجية، والإجماع الوعى الجماعى فى الاستدلال والمشورة، وأخير الاجتهاد والوعى الفردى لإعمال النظر وإبداء الرأى القائم على تحليل العلل، وتعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما فى العلة.

هذا أيضا منهج كلى شامل يجمع بين النظر والعمل، بينالمنطق والسلوك، بين العقل والتجربة، بين الاستنباط والاستقراء، بين الاستدلال الفردى والاستدلال الجماعى، بين المعرفة المباشرة عن طريق الحس والعقل والوجدان والمعرفة التاريخية عن طريق الرواية وهو المنهج الذى أبقى على المسلمين فى التاريخ وحفظ لهم إبداعهم واستقلالهم الحضارى .

رابعا: خاتمة التنظير المباشر للواقع:

والآن وبعد استعراض المنهج فى الغرب وعند المسلمين ، ما موقفنا من هذه الازدواجية المنهجية بعد أن سادت مناهج الغرب المتعددة ونقلنا فى ثقافتنا صراعها التاريخى والعلمى حتى توارى فكرنا المنهجى القديم تحت دعوى الفكر الدينى أو الفكرالقديم فى مقابل الفكرالعلمى أوالفكر الحديث؟ ما العمل أمام هذه التجزئة المنهجية الوافدة من الغرب والاجحاف بالموروث تكراراً للأفكار الشائعة أو استسهالا للتقليد؟.

مما لاشك فيه أننا منذ مائتى عام، ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة نصارع التقليد وندعو إلى إعمال العقل سواء فى تيار الإصلاح الدينى أو فى الفكر السياسى الليبرالى أو فى التيار العلمى العلمانى. وقد أصبح العقل والعقلانية والتنوير إحدى مطالب العصر. وإذا كنا مازلنا نعانى من سيادة اللامعقول وغياب الترشيد والتخطيط فإن التنظير المباشر للواقع اعتمادا على المنهج العقلى كحاجة من حاجات العصر بصرف النظرعن نشأته فى وعينا المعاصر من الوافد أو من الموروث ضرورة ملحة نظرا لغياب التخطيط الكلى فى الحياة الخاصة والعامة. وكثيرا ما حكم المفكرون العرب المعاصرون على حياتنا الفكرية والثقافية بالخطابة والإنشائية والشعرية والصوتية والكلامية والانفعالية مع التركيز خاصة على الخطاب السياسى والخطاب الإعلامى. وهنا تبدو الحاجة إلى المنهج

العقلى الواضح الخطوات من أجل المساهمة فى الانتقال من مرحلة الخطابة إلى مرحلة التفكير، ومن بلاغة الانشاء إلى منطق الفكر.

ولما كان العقل مجرد أداة فإن موضوع التفكير هو الواقع والتحديات العصرية من احتلال وتخلف وتجزئة وقهر وتبعية وسلبية وضياع. ولايمكن معرفة هذا الواقع معرفة انطباعية كما يفعل الروائى أو الشاعر، معرفة كيفية خالصة لايختلف عليها المبدع والمتلقى. المعرفة الاحصائية الكمية ضرورية لمعرفة مكونات الواقع والبنية الاجتماعية. فلغة الاحصاء خير دليل على صدق الفكر : آثار الاحتلال ومظاهره الكمية فى فلسطين ولبنان، مدى التجزئة وعمقها ومظاهرها وأسبابها، ألوان القهر وأنواع القوانين المقيدة للحريات وكيفية صدورها، مدى التبعية فى الغذاء والسلاح والتعليم، ومقدارالسلبية فى المشاركة فى الحياة العامة بمؤشرات دقيقة خاضعة للقياس. لم يعد الفكر خطابة بل هو حكم كمى من أجل تغيير الدافع وإعادة التفاعل بين مكوناته وتوجيه مساره. هكذا فعل الأصولى القديم فى مناهج البحث عن العلة منها السبر والتقسيم، إحصاء العلل احصاء كاملا تم تحييدها إلا واحدة تخضع للتجربة لمعرفة هل هى العلة الفاعلة أو الفاعلة أوالمؤثرة أم الملائمة أو المناسبة.ومن هنا لايستبعد التنظيرالمباشر للواقع المنهج التجريبى الاحصائى الاستقرائي الذى يستطيع اعطاء صورة للواقع الذى يتم التعبير عنه بالقول والتنظير له بالفكر.

كما يتضمن التنظير المباشر للواقع بالإضافة إلى مناهج العقل

والاستدلال من ناحية ومناهج الحس والتجربة من ناحية أخرى مناهج الإدراك المباشر وتحليل التجارب الحية الفردية والاجتماعية، الإحساس بالناس والتاريخ بالأزمة والقهر، بالماضى والحاضر، وحمل هموم المستقبل للعالم والمواطن. فالعلم قضية ، والبحث التزام، والمعرفة تحقق .

إن التحدى الآن ليس هو الأزمة بل المدخل اليها، ليس القضية بل طريقة التعامل معها ومعالجتها، فالأزمة فى المنهج قبل أن تكون فى الموضوع. فالموضوع واحد منذ مائتى عام لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم كما سأل شكيب أرسلان، أسباب التخلف وشروط النهضة كما عرض مالك بن نبى . والأزمة فى كيفية المقاربة، التشخيص والحل، الوصف والمخرج، الإدراك والتغيير . لذلك كانت معظم الاكتشافات الفكرية والعلمية ونقاط التحول فى تاريخ الحضارات اكتشافات المنهج وتحولات المنهج. وقديما قال عمر بن الخطاب إن نصف الإجابة فى طريقة وضع السؤال .

المنهج فى دراسة الحضارات

د. محمد على الكردى(*)

(*) أستاذ الحضارة الفرنسية بجامعة الاسكندرية.

لعل أصوب مدخل للحديث عن قضية المنهج أو المناهج فى أي مجال من مجالات العلوم سواء أكانت دقيقة أو غير دقيقة، ونقصد بالدقيقة العلوم المنضبطة (رياضية أو تجريبية) والتي تسمى حاليا فى لغة الحاسبات الآلية «صلبة» (hard)، وبالعلوم غير الدقيقة العلوم الإنسانية التى تعرف، فى الأغلب ، بعدم موضوعيتها الكاملة لارتباطها بذاتية الباحث من جهة، وبالرؤى الثقافية والأيديولوجية المختلفة للدارسين من جهة أخرى نقول إن أصوب مدخل للحديث عن مناهج العلوم هو البدء الذى يتتبع أصول الكلمات والغوص بحثا عن جذورها. وذلك بقدر ما يشكل تاريخ أى لغة من لغات العالم أصدق مرآة لحياة الشعوب ودرجة تطورها وتقدمها. ومن الطريف حقا أن ترتبط كلمة «الحضارة» (civilization) فى العربية وفى اللغات الأوروبية بالحقل الدلالى نفسه الذى يردها إلى عالم الحضر والمدينة، وأن تقترب المفردة الأخرى - التى تقرن بها - وهى مفردة «الثقافة» (culture)، وإن لم تتطابق تماما بين العالم العربى والعالم الغربى، لتأتلف حول حقل الزرع والحرث والإعداد والتشذيب والتهذيب. ولعلكم تذكرون قول عنترة، فى هذا المعنى الأخير ، واصفا رمحه :

جادت يداى له بعاجل طعنة * بمثقف صدق الكعوب مقوم

وكما أن مفهوم الحضارة والثقافة سوف تزدوج معانيه وتتأرجح دلالاته فى العربية بين الإيجاب والسلب، فإننا نعثر على الظاهرة عينهافى الحضارة الغربية. ذلك أن حياة الحضر تفترض، من غير

شك، تقدما فى العمران وازديادا فى وسائل الراحة والرفاهية، ولكنها قد تعني، فى الوقت نفسه، ضروبا من التكلف والزيف والرياء. على هذا النحو نرى كاتبا كبيرا مثل «جان - جاك روسو» ينبرى لشجب المدنية الحديثة وإدانة ما يقدمه مجتمع الحضر من عروض ومشاهد وفنون تهدد الفطرة أو السليقة «الطيبة» للإنسان، تماما كما نرى أباالطيب المتنبى يشجب الجمال الصناعى الذى تتكلفه نبات الحضر ويثنى على حسن البدويات اللواتى يتميزن بالبساطة والجمال الطبيعى :

ما أوجه الحضر المستحسنات به * كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلو بتطرية * وفى البداوة حسن غير مجلوب

وكذلك شأن الثقافة، فهى كما رأينا، تفيد الإعداد والتهذيب وتشير إلى الحذق والمهارة، وتؤدى إلى السيطرة على الطبيعة والظفر على الخصوم والأعداء؛ ولكنها، مثل العلم أوالإعلام المضلل، قد تستخدم استخداما سيئا وقد تحول إلى ما لاينفع وإلى ما يزيد من شرور الدهر ونكباته. ألم يقل أبو الطيب وهوالخبير بشئون الحياة ودواهيها:

وكأننا لم يرض فينا بريب الـ * دهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة * ركّب المرء فى القناة سنانا

وليس من شك فى أن هذه الازدواجية يمكن ردها إلي نوع من الاضطراب أو التأرجح فى العلاقة التي كانت تقيمها ثقافات الشعوب عبر تاريخها بين الطبيعة والثقافة؛ فالطبيعة بالنسبة للشعوب القديمة

كانت لاتنفصل عن القوى الكونية وذلك بقدر ما كان الإنسان أو الكون المصغر (microcosm) نفسه جزءا لاينفصل ... عن الكون الكبير (macrocosm)، وهوالأمرالذى يفسر قيام علاقات اتصال بين دورة الكواكب ومصائر البشر ويبرر قيام العلوم الخفية القديمة من سحر وتنجيم فى كنف علم الفلك نفسه، كما يفسر قيام الأساطير القديمة فى عصور الوثنية، كما يفسر سيطرة فكرة القدر بصورة مأسوية على مصائر الناس وهو ماعكسته، فى أسلوب فنى رائع، المأساة اليونانية القديمة حينما أبرزت محاولة الإنسان الأولى فى تأكيد ذاته وتحقيق استقلاله عن القوى الخارجية التى تحاول أن تحد من حريته وإرادته .

إن مفهوم الحضارة وثيق الصلة بالطبيعة، وذلك بقدر ما تشكل الحضارة ضربا من سيطرة الإنسان على الطبيعة فى صورة تقنيات وتنظيمات ومؤسسات، وبقدر ما تتصل الحضارة بكل ما يرفع مستوى معيشته ويؤكد رفاهيته عن طريق الارتقاء بالبناء والعمران، وكل ذلك يتطلب اصطناع العلم والتقنية والتخطيط أو «الهندسة الاجتماعية». ولقد ربط المفكر الألمانى «هردر» (Herder) - فعلا - بين الطبيعة والحضارة، الحضارة كمفهوم عقلى أوعلمى لاعلاقة له بالإطار الاجتماعى، على أساس أن الثقافة هى، فى الفكر الألمانى، نتاج الروح (Geist). ولعل هذا الفصل يطابق ما نجده عند رائد المثالية الألمانية «هيجل» من تمييز بين الروح والعرف أو قوله باغتراب «الفكرة» فى الشكلية، وما نلاحظه عند «شبنجلر» من

تفرقة بين الثقافة كصيرورة وبين الحضارة كتعين وتشكل ينبيء بالانحدار والزوال. ويذهب المؤرخ الألماني «نوربرت إلياس» إلى أن مصطلح الحضارة (courtesy) الذي دخل ألمانيا عن طريق التأثير الفرنسي (courtoisie) أو الانجليزي وعن طريق الطبقة الحاكمة والبلاط الملكي لم يلق قبولا، خلال القرن الثامن عشر، لدي المثقفين الوطنيين الذين روجوا لمفهوم الثقافة (Kultur) إلى درجة أن هذا المصطلح أصبح في كتابات الأنثروبولوجيين مفهوما شموليا بالغ الاتساع يكاد يتراوح بين أبسط الأدوات وبين أرقى المذاهب الفكرية أو الفنية. إلا أن مفهوم الثقافة، وإن ظل بعامة مرتبطا في الفكرالغربي بأنماط السلوك الاجتماعي أو بالتقاليد الاجتماعية المتوارثة، غالبا ما يربطه الدارسون الغربيون، حينما يخص الأمرالشعوب التي لم تحظ بقدر كاف من التقدم المادي، بنماذج أوبأنماط من التكوينات الطبيعية أو البيولوجية الصرف وكأن ثقافات هذه الشعوب أنساق مغلقة لاتعرف التطور الذاتي أوالتاريخي وكأنها لاتتغير إلا تحت تأثير الحضارة الغربية المهيمنة .

مهما يكن من أمر، فإن مصطلحي الحضارة والثقافة في الفكر الغربي حديثان نسبيا، فهما لم يشيعا إلا بدءا من القرن الثامن عشر بالنسبة لمصطلح الحضارة (civilization) ومن القرن التاسع عشر بالنسبة لمصطلح الثقافة وذلك تحت تأثير المدرسة الرومانسية الألمانية. ونلاحظ أن مصطلح العمران الخلدوني ظهر خلال القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أن أعمال بن خلدون لم تعرف، على سبيل

المثال، فى فرنسا إلا من خلال ترجمة «سلان» (Slane) التى ظهرت بين ١٨٦٢ و١٨٦٨ .

ويبدو أن كلمتى حضارة وثقافة لم تتبلورا كمفهومين علميين إلا بفضل تطور العلوم الإنسانية، كما لم تستخدما بصيغة الجمع أو التعدد، كما يقول «بروديل» إلا بعد عام ١٨٥٠، وهو مايعنى التحول من مفهوم الحضارة المثلى أى الغربية إلى مفهوم الحضارات والثقافات، وهو مفهوم لايبرز إلا بالانفتاح على الشعوب الأخرى وزيادة حركة السفر والرحلات، ولعلنا نعلم أن أدب الرحلات هو المجال الرئيسى الذى نشأ فى كنفه علم الأجناس الذى شاع فيما بعد تحت مسمى علم «الأنثربولوجيا» بكل فروعها المعروفة من فيزيائية واجتماعية وثقافية .

وبالرغم من بروز مفهوم الحضارات خلال القرن التاسع عشر، فإننا لانلاحظ أى اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى المصطلح، فكاتب مثل «جيزو» (Guzot)يفهم الحضارة فى دراسته **«تاريخ الحضارة فى أوروبا» و «تاريخ الحضارة فى فرنسا»** (١٨٢٩-١٨٣٢) بمعنى التقدم الاجتماعى والعقلى، وهو المعنى الذى برز عند «كوندورسيه» وغيره من كتاب عصر التنوير السابق، إلا أن «جيزو» لايعنى بإبراز التطور أو التقدم «العقلانى» وإنما يسعى إلى اكتشاف نوع من التوافق بين السلطة السياسية وحركة الحرية، ويعتقد أن الحضارة هى، فى جوهرها، تحقيق لهذا الاتساق أو التوازن بين السلطة والحرية. أما «جاكوب برخاردت»

(J.Burckhardt) فى دراسته عن «**ثقافة عصر النهضة فى إيطاليا**» (١٨٦٠) فإنه يبنى تصوره للحضارة على «ثالوث» يربط بطريقة عضوية بين الدين والدولة والثقافة، وإن كان اهتمامه ينصب ، فى الواقع، على إبراز القيم الفنية للنهضة الإيطالية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على حساب دراسة السياق المادى والاجتماعى .

ويقوم تفسير «أوسفالد شبنلجر» (O.Spengler) صاحب كتاب «**انحدارالغرب**» الشهير، للتاريخ على محاولة إدراك القانون الخفى أو «القدر» الذى يهيمن على سيرورته ويقوده من مراحل التضوع الثقافى إلى مراحل الحضارة أو المدنية التي تتجمد فيها الثقافة وتبدأ فى التدهور والانحدار. وهو يفهم السيرورة التاريخية على أنها حركة بيولوجية تخضع للميلاد والنمو والازدهار ثم الشيخوخة والفناء. من ثم، يرى أن كل ثقافات العالم، التي يفرد لها دراسات مطولة، تنمو وتتألق وتتبلور وفقا لقوانين خاصة بها ووقفا عليها، ثم تتحول إلى حضارة أو مدنية فتأخذ فى التقوقع والتقلص والأفول .

ويبلور «شبنجلر» (١٨٨٠-١٩٣٦) فى سبيل فهم الحركة الداخلية للتاريخ بعض المفاهيم التى يراها أساسية مثل مفهوم «التماثل» الذى يحكم الأشكال الحية على عكس «القانون الكمى» أو الرياضى الذى يحكم حركة الطبيعة وأشكالها «الميتة». ويقصد «شبنجلر» بالتماثل ليس مجرد التشابه الظاهرى الذى يجده بعض المؤرخين بين شخصيات مثل المسيح وبوذا أو بين نابليون ويوليوس قيصر

والاسكندر الأكبر أو بين مدن مثل فلورنسا وأثينا، وإنما التشابه العضوى الذى يقوم على منطق حركة التاريخ، وهو ما لايتم إلا باستخلاص نوع من «مورفولوجيا» التاريخ العالمى أو «مورفولوجيا» العالم - التاريخ» ، شريطة أن يكون فهم هذا التاريخ مرتبطا بسيرورته الحية، وليس بما ظهر منه من أشكال مستقرة وثابتة. وهنا يميز الكاتب بين مفهوم «العدد الرياضى» أو الحسابى، الذى يتلاءم مع دراسة الطبيعة فى صورها «الآلية» ، وبين المفهوم الذي يؤمن به لدراسة التاريخ البشرى، وهو «العدد الكرنولوجى» أو الزمنى .

من ثم، لاتعنى دراسة التاريخ تصنيف الأحداث السياسية أو الروحية الظاهرة ولا أسباب هذه الأحداث وآثارها العلمية الملموسة وفقا للحقب التاريخية المتعارف عليها، وإنما الكشف عن الدلالة العميقة الكامنة وراء ظهور هذه الأحداث عبر عصور التاريخ المختلفة؛ وكذلك صياغة اللغة التعبيرية العامة التى يمكن أن تربط بطريقة عضوية بين جميع الأشكال الثقافية المميزة لشعب من الشعوب والدالة على روحه (volkgeist) سواء أكانت أحداثا سياسية أو تصورات عقلية ونفسية وروحية أو أشكالا فنية. وهو ما يعنى أن لكل عصر روحه التارخية المميزة له والمشكلة لعبقريته الخاصة، وأن الفيلسوف الحقيقى هوالذى فهم عصره وعبرعنه فى كتاباته بطريقة عضوية متلاحمة بالغة العمق والتماسك .

أما «أرنولد توينبى» (A. Toynbee) (١٨٨٩- ١٩٧٥) فلا يقيم حدا فاصلا بين مفهومى الثقافة والحضارة وتشير لفظة

الحضارة لديه، فى الأغلب ، إلى الحركة والرحلة وإلى الكلية التى لاتتجزأ لا إلى الظروف الموضوعية أو الغاية وما قد نسميه نهاية المطاف. من ثم فالحركة هى التى تبعث الحياة فى حضارات الشعوب وثقافاتها وانعدامها أو توقفها هو الذى يحكم عليها بالانحدار والزوال. ويمكن رد العوالم الحضارية ، فى نظر «توينبى» إلى ثلاثة رئيسية :

أ- عامل **التحدى** الذى يسمح بقهر ظروف البيئة الجغرافية وعقباتها الطبيعية، بل إن هذه العقبات نفسها تعد أكبر حافز نفسى يدفع الشعوب إلى التغلب عليها وبناء الحضارة .

ب- يعد الدافع **الدينى** أيضا ، فى نظره، أهم من نقل التقنية والابتكارات الآلية بالنسبة لحركة الشعوب وتقدمها .

ج- يعتقد «توينبى» أن الانتقال من الثقافات البدائية إلى الحضارة لايتم عن طريق التطور البطىء، وإنما عن طريق التحول (mutation).

وإذا كان «توينبى» قد اهتم كثيرا بإبراز العوامل الثقافية والروحية فى تطور الحضارات، إلا أنه أهمل تحليل دور التقنية والعوامل الاقتصادية والاجتماعية فى تفسير حركة التاريخ. بل إنه يذهب إلى حد الاعتقاد بخرافة فكرة التقدم ولايعتد إلا بعامل «الطبيعة الروحية» التي تهيمن، فى نظره على مصير البشرية .

مدرسة الحوليات الفرنسية ومفاهيم «التاريخ الجديد».

ربما يسأل متسائل عن سبب اختيار هذا المثال؛ وفى الواقع إذا

كنت اخترت «مدرسة الحوليات الفرنسية» (les Annales) نموذجا فذلك مرده إلى أن مجموعة المؤرخين الذين تضافروا على تكوينها منذ عام ١٩٤٦- وعلى رأسهم «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» - قد لعبوا دورا مهما ورئيسيا فى تحويل التاريخ من منهج يقوم فى معظمه على سرد الأحداث وتركيز الاهتمام على الطبقات الحاكمة والمؤسسات الفوقية، وذلك لسبب بسيط هو ارتباط أوائل المؤرخين المحدثين بالسلطة وتنظيم الأرشيفات والوثائق الخاصة بالدولة، إلى منهجية متعددة ومفتوحة على العلوم الإنسانية والاجتماعية الصاعدة، وبوجه خاص علم الاقتصاد والاجتماع والسكان فى البداية ثم بقية العلوم، كما سوف نرى .

لقد تطورت ونمت «مدرسة الحوليات» فى ظل القسم السادس - الخاص بالعلوم التاريخية - من «المدرسة العلمية للدراسات العليا» (E.P.H.E) بجانب جامعة السربون عام ١٩٤٦، وذلك بهدف تأسيس فرع لبحوث التاريخ الاجتماعي يقوم على نظام «السمنار» (قاعة البحث) الذى ابتكره الباحثون الألمان. ولقد كان لنشأة هذا القسم دور كبير فى تطوير الدراسات التاريخية من دراسات فردية ضيقة إلى دراسات عملية تقوم على **البحث والمناقشة وترابط المناهج الاجتماعية والإنسانية**» ولقد لعب «فرناند بروديل» الدور الأساسى فى إنشاء هذا القسم بعد وفاة «لوسيان فيفر» ومقتل «مارك بلوك» عام ١٩٤١ .

ولعل أهم عمل تاريخى لبروديل هو رسالته للحصول على

الدكتوراة وعنوانها «**البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط فى عصر فيليب الثانى**»حيث يبرز دور **القوى الثابتة والدائمة**، وهى عادة الأطر والحتميات البيئية والجغرافية ، ودور **العوامل البشرية** المتفاعلة معها فى تحريك التاريخ. وتعتمد هذه الدراسة على بلورة مفاهيم جديدة مثل «التاريخ الطويل المدى » أوالثابت الذى يرتكز على تحليل وكشف البنى الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية التى لا تتطابق بالضرورة مع التقسيمات المعروفة من عصور وقرون وحقب التى كانت تخضع فى تحقيباتها السابقة لمعايير الأحداث السياسية وتتابع النظم الحاكمة.

ولقد كان لهذه الدفعة، التى شكلتها دراسات «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» من قبل عن المعتقدات والبنى العقلية وأسس المجتمع الريفى والاقطاعى ودراسات «بروديل» ومنها أيضا «**هوية فرنسا**» التى تقوم على ترابط دينامى عميق بين المكان (البعد الجغرافى) والزمان (البعد التاريخى) – الأمر الذى يذكرنا بدراسات جمال حمدان عن عبقرية المكان – ودرساته القيمة التى ترجمها إلى العربية الدكتور ماهر شفيق وعنوانها : **الحضارة المادية والرأسمالية**» دور كبير فى بلورة الدراسات الحديثة التى عرفت تحت مسمى «**التاريخ الجديد**» على شاكلة «**النقد الجديد**» و«**الرواية الجديدة**» وغير ذلك من تيارات التجديد الثورى. ويعتمد المنهج الجديد على إبراز حركة البنى التاريخية العميقة والثابتة ودراسة الحشود والجماعات والطبقات وليس الأفراد، والاهتمام بالوقائع المادية من

ملبس ومسكن وطرق للمعيشة وكل ما يتصل بالحياة اليومية، وبالأنماط العقلية والتصورية من اعتقادات وعادات وتقاليد خاصة بالموت والميلاد والأعياد والاحتفالات. ومن هنا جاء قيام هذه الدراسات التاريخية على الإفادة من علوم الاجتماع والاثنوجرافيا أو الانثربولوجيا الحديثة والاقتصاد وعلم النفس والتحليل النفسي .

وإذا كان «التاريخ الجديد» ، كما طورته مدرسة الحوليات الفرنسية، يعنى بهذه الجوانب الأنثربولوجية من حياة الشعوب (التى كان يعنى بها مؤرخونا السابقون على شاكلة ابن اياس وغيره ولا يهتم بها المحدثون)، فإن ذلك كان نوعا من رد الفعل ضد الدور الذى لعبه التاريخ الوضعى، وليد القرن التاسع عشر، الذى مزج بين تاريخ المجتمعات وتاريخ المؤسسات وبينها وبين أشكال السلطة وحياة الطبقات السائدة والمهيمنة على الصعيد الاجتماعى؛ ولعل هذا الدور الوضعى للتاريخ قد بدأ خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر حينما عملت الدولة على تأسيس الأرشيفات الحكومية وتجميع الوثائق الرسمية فى دور حفظ بطريقة منظمة، وحينما التفت الباحثون والمؤرخون ، وكثير منهم مرتبط أساسا بجهاز الدولة، إلى أهمية دراسة جهاز الحكومة وتنظيماتهاالمختلفة وإلى ضرورة ربط حياة الأفراد بالحياة العامة والرسمية نظرا لما يناط بالدولة، فى فترة تطوير وتأسيس آليات الحكم الحديثة. من توجيه وإرشاد وبث مفاهيم التنوير الضرورية لإحداث عملية التقدم والنمو الاجتماعى على أساس من قيم أيديولوجية مقبولة كالحرية والعقلانية والعدالة، وكلها

مفاهيم نشأت ملازمة لقيام الدولة الليبرالية التى عرفها الغرب فى فترة قيام الرأسمالية التجارية، أي خلال القرن السادس عشر الذى تم فيه استغلال المعادن النفيسة المتدفقة من مناجم المكسيك وبيرو وبداية المد الكولونيالى وتكوين ما يشبه السوق العالمى، وفى فترة تطورها نحو الرأسمالية الصناعية؛ هذا بينما كان البحث التاريخى يتجه قديما نحوالمصادر الدينية واللاهوتية وتحقيق المصادر القديمة وبوجه خاص اللاتينية واليونانية.

لقد كان أول مؤرخ فرنسى يعنى بحياة الشعب فى كفاحه اليومى وبعاداته وتقاليده وأحلامه وأوهامه بعيدا عن وظيفة المؤسسات الحكومية والقوالب الرسمية للسياسة العامة هو المؤرخ الرومانسى «ميشليه» (michelet) خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان قد سبقه إلى ذلك ، خلال القرن السابع عشر، «لوجراند دوسى» (Legrand d' Aussy) الذى ألف أول دراسة رائدة عن **«تاريخ الغذاء»** ولعلها أول دراسة انثربولوجية تاريخية فى فرنسا .

وإذا كان لابد من الإشارة إلى دور المؤسسين والرواد لهذا المفهوم العريض «للتاريخ الجديد» ، فلنذكر دور «توكفيل» و«ماركس» و«سومبارت» و«ميزنجا» وهنرى بيرين»، هذا بجانب الفلاسفة وعلماء الاجتماع من أمثال «هنرى بيير» و«دور كايم» و«ماكس فيبر» و«مارسيل موسى» و«جان موفريه» و«بانوفسكى» و«بيير فرانكاستل» وأخيرا «فرناند بروديل» وتلاميذه «لوروا لادورى» و«بيير شونو»، وأضف إليهم قطبى الانثربولوجيا : «جورج دوميزيل » رائد دراسة

الملاحم الهندو- أوروبية و«كلود ليفى - ستروس» مؤسس البنيوية فى مجال العرابة ودراسة الأساطير الهندو - أمريكية.

ومن أهم المفاهيم التى بلورها «التاريخ الجديد» مفهوم «التاريخ المتعدد الجوانب» الذى لايعنى بالربط التعسفى بين الأحداث أو تفسيرها بواسطة أحكام قيمية ومثالية مسبقة بقدر ما يعالج موضوعاته بطريقة شمولية انطلاقا من مبدأ «الظاهرة الاجتماعية الكلية» التى بلورها «مارسيل موس»؛ ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى دراسة «ناتان واشتيل» عن «رؤية المهزومين»، وهى دراسة رائدة عن حركة أو ظاهرة «المثاقفة» (acculturation)، ودراسة «تودوروف» عن **«فتح أمريكا- مسألة الآخر»**،التى ترجمها إلى العربية بشير السباعى (سينا للنشر، ١٩٩٢) حيث يمزج كل منهما بين رؤية المؤرخ ورؤية الأنثربولوجى أو السيمولوجى وبين منظور الأنا (مبدأ التمركز الغربى) والآخر (رؤية الشعوب المقهورة)؛ وإلى دراسة **«تاريخ الموت فى الغرب»**«لميشيل فوفيل» .

أضف إلى ذلك أن «التاريخ الجديد» يعنى بدراسة قضايا ومشاكل تقوم على فكرة «الاختلاف» وليس «المشاكلة» أو التماثل الذى يطمس التناقضات ويذيب الفروق الدالة والمعبرة، وهذا ما نجده بوجه خاص فى دراسات الفلاسفة والمهتمين بتنظير تاريخ الفكر وليس مجرد تدوين النظريات وعرضها بطريقة مباشرة وسطحية، وأفضل مثال لهذا الاتجاه دراسة «ميشيل فوكو» عن «تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى» . كما يعنى «التاريخ الجديد بتحديد وبناء

المقولات التى يعالج فى إطارها مادته التاريخية أو معطياته المتوفرة مثل تحديد أشكال من الزمان التاريخى والتحقيب كالحركة الطويلة (Trend) التى يتم على أساسها إدراك الاتجاه العام للأسعار أو تحديد البنية السكانية أوالاقتصادية أو التركيبات الطبقية والاجتماعية أوالقوالب العقلية وأنماط التفكير والسلوك العامة؛ ويعنى كذلك بقياس وتحديد ظاهرة «التحولات» (mutations) البالغة الأهمية فى إحداث «القطيعة المعرفية»، أى التغير الكيفى الذى تحدث من خلاله الطفرات الاجتماعية أو الثورات العلمية مثل التحول من الثبات إلى التطور فى علوم الحياة أو الانتقال من النيوتينية إلى النسبية عند «اينشتاين» ، وتحديد أشكال أوأبعاد الزمن الأخرى فى صورة حركة موسمية أو دورية يمكن ترجمتها إحصائيا مثل حركة الأسعار ونسبة الممارسات الدينية أو الشعائرية وحركة ارتفاعها وانخفاضها عبر التاريخ .

هذا بالإضافة إلى استخدام وسائل القياس الكمى أو الإحصائي خاصة إذا كانت المادة التاريخية تشمل بيانات عددية، وهو الأمر الذى أتاح للمؤرخين دراسة **الظواهر السكانية** من المنظور التاريخى وإعداد دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادى («هاملتون» و«لابروسى») لايكتفى فيها أصحابها بالوصف العشوائي أو السرد الجزئي وإنما يحنون ببناء المعطيات (المستقاة من التعدادات السكانية أو قوائم الضريبة أو وثائق الجرد والحصر المختلفة المتوفرة فى أرشيفات الدولة أو الجيش أو المستشفيات وغير ذلك من المؤسسات كالشهر العقارى مثلا) فى صورة جداول ورسوم بيانية

وكذلك بتطبيق بعض النماذج التى يتوصل إلى صياغتها علماء الاقتصاد (دورة «جوجلار» الزراعية مثلا)؛ وعلى هذا النحو يتم الربط بين مختلف فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية بصورة بناءة ومثمرة. وليست هذه التصورات قاصرة على التاريخ الاجتماعى والاقتصادى أو السكانى إذ هناك أعمال بالغة الأهمية تبتكر موضوعها ابتكارا مثل دراسة **«تاريخ الكتاب»** لليوغسلافى «الكسندر ستيبتشفيتش» وكتاب **«الجذور الثقافية للثورة الفرنسية»** (مورنيه ثم روجيه شارتييه) والدراسات الخاصة بنشأة المظهر والخيال الوسيطى للمؤرخ «جاك لوجوف» (J. le Goff).

وليس من شك فى أن أهمية هذه الاتجاهات والمناهج التاريخية التى ترتبط بها يقر فى عدم اعتمادها على **الأطر الجاهزة** والقنوات المعدة مسبقا التى تفرضها الأغراض الأيديولوجية أو الأهداف المقبولة سلفا، كما أن أهميتها تعتمد على إبراز **الرؤى المغايرة** وليس المطابقة لعواطفنا وأمانينا اللاشعورية والتعويضية . ذلك أن المعرفة التاريخية والحضارية ليست فى مجرد تأكيد تصوراتنا أو تحسينها للآخرين وإنما فى تجديدنا، بل وتغييرها، وإلا لن يكون هناك تجديد، أو بعبارة أدق **«إنتاج معرفى»** فالدراسة التاريخية والحضارية لم تعد صياغة «حقائق» موجودة فى طيات التاريخ وإنما فى كشف وإنتاج هذه الحقائق عن طريق بناء المناهج والمداخل وتعديد الرؤى الجديدة والمتغيرة وفقا لاهتمامات العصر واستثمارا لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز دفاع مصطنعة.

المنهج الرياضى فى العلوم الاجتماعية

د. ناجى بدر(*)

(*) قسم الاجتماع بآداب دمنهور، جامعة الاسكندرية.

مقدمة :-

الرياضـايات لغة العلم، وهى إحدى اللغات التى يملكها البشر، ولكن ربما كانت اللغة الوحيدة التى لاتتأثر بأى تحيزات تنبع من المضمون Contant الذى تستخدم فيه، وهذا ما جعلها لغة عالمية ومعنى ذلك أنه لامجال للتفسيرات والتأويلات التى قد تنطوى على تحيزات الباحث وانتماءاته المختلفة. وإذا كانت الرياضـة هى علم دراسة البناءات structures- بغض النظرعن المحتوى - فإنه من الممكن- عن طريق استخدامها - الربط بين حقائق علمية ذات محتويات طبيعية مختلفة ولكن لها نفس البناء المنطقى. وبالتالى فالرياضيات مناسبة تماما كلغة العلوم كما وصفها «جاليليو».

وليس الاهتمام بالرياضيات مسألة حديثة أو معاصرة فقد شغلت دائما فكرالعلماء والباحثين وقد أوضح «أوجست كونت» August cont فى كتابه دروس فى الفلسفة الوضعية cours de philosophie postitive أن الرياضيات من الأدوات الأكثر فاعلية فى العقل الإنسانى التى يستطيع بها أن يمحص قوانين الطبيعة الإنسانية ، وقد اعتبر الرياضة القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها كل العلوم الأخرى وتبنى عليها كل انجازاتها وتسترشد بمبادئها وقواعدها فى فهم وتحليل الظواهر والحقائق التى تهتم بدراستها هذه العلوم وقد رتب بعد ذلك مجموعة العلوم من منطلق البساطة والتعقيد وانتهى إلى أن علم الاجتماع هو أكثر العلوم تعقيدا وهو يرى أن معظم العلوم تعتمد على العلوم التى سبقتها فى

الترتيب الذى أورده فى تصنيفه للعلوم، وعلى ذلك فهو يرى ان الرياضة هى أبسط العلوم على وجه العموم وسر بساطتها أنها لاتعتمد على غيرها من العلوم ولايحتاج الإنسان أن يستعين بأي علم آخر على فهمها، وفى نفس الوقت فإن العلوم الأخرى تعتمد على الرياضيات وتستعين بها(١) .

ولقد اثارت القضايا المنهجية المتعلقة بالاعتماد على الاتجاه الكيفى والاتجاه الكمى فى الدراسة والتحليل فى العلوم الاجتماعية ، كثيرا من الجدل والنقاش بين المتخصصين والباحثين فى العلوم الاجتماعية وظهر فى تراث العلوم الاجتماعية المختلفة إسهامات ومحاولات من جانب بعض العلماء المهتمين بالنواحى المنهجية، يمكن تلخيصها فى مجموعتين :

الأولى: تؤيد الاعتماد على أحد الاتجاهين على حساب الآخر، فى محاولة لإبرازه والتأكيد على أهميته وجدواه .

الثانية : وترى أنه لامجال للتفرقة بين الاتجاهين أو الاعتماد على واحد منهما دون الآخر، واعتبروا أن التفرقة بينهما نوعا من الثنائية المصطنعة التى لا أساس منهجى لها .

ويعتمد أنصار الاتجاة الكيفى فى العلوم الاجتماعية على قضية هامة مؤداها : أن معظم مشكلات البحث والدراسة فى العلوم الاجتماعية تعد ذات طبيعة كيفية، بالإضافة إلى صعوبة استخدام

---

(١) نادر فرجانى : استخدام الأساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الإنسانية (مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الرابع ، الكويت ، ١٩٧٤) ص١١ .

الرياضيات أو إجراء التطبيقات الرياضية، ويرجع ذلك إلى اختلاف مفهوم النظرية وصعوبة تعريف المتغيرات الأساسية وقياسها فى العلوم الاجتماعية عنها فى العلوم الطبيعية .

أم أنصار الاتجاه الكمى فى العلوم الاجتماعية، فقد انطلق تأييدهم لهذا الاتجاه من خلال نظراتهم للنتائج المذهلة التى توصلت إليها العلوم الطبيعية عن طريق استخدامها للأساليب الرياضية والاحصائية، تلك النتائج التى تميزت بالدقة والموضوعية.

وبناء على ذلك رأوا أن محاولة محاكاة هذه العلوم فى مناهجها قد تساعدهم على الارتقاء بالعلوم الاجتماعية ووضعها فى مصاف تلك العلوم، والابتعاد بها عن المعالجات الفلسفية التى سيطرت على العلوم الاجتماعية زمنا طويلا(٢) .

إلا أن بعض علماء العلوم الاجتماعية قد حاول الجمع أو التوفيق بين كل من الاتجاهين ، وجاءت محاولاتهم من منطلق أن – علما بأن طبيعة مشكلات الدراسة فى العلوم الاجتماعية تعتبر ذات صفة كيفية– المعطيات أو البيانات التى يسفر عنها أي بحث فى العلوم الاجتماعية تنقسم إلى : بيانات كيفية ليصلح معها فى الدراسة والتحليل سوى الاتجاه الكيفى، وأخرى كمية لايجدى معها سوى أساليب وطرق الاتجاه الكمى. هذا بالإضافة إلى إمكانية تحويل البيانات الكيفية إلى بيانات كمية يمكن قياسها من خلال إحلال

---

(2) J.Keneny (er.al); Introduction to finit Mathematics (N.J.: Prentice Hall, 1965). P.54.

وحدات كمية بدلا منها، وعلى ذلك يمكن معالجتها كميا، مع ضرورة الوضع فى الاعتبار ردها مرة ثانية إلى أصلها الكيفى أو بمعنى أدق مضمونها الاجتماعى، مع وضع التحفظات اللازمة حتى لايضيع هذا المضمون خلال الأرقام والمعادلات والصيغ الكمية .

إن العلماء يهدفون أساسا من خلال دراساتهم وبحثوهم المختلفة تدعيم أو تقويض النظريات القائمة، أو تكوين أو إبراز نظريات جديدة تساعدهم على فهم المجتمع وما يتضمنه من ظوهر . وإن كانت النظرية من حيث صياغتها بصفة عامة تنطوى على عدد من المفاهيم والمصطلحات ، فمن المعروف أن هناك مشكلة تتعلق بعدم اتفاق العلماء حول هذه المفاهيم والمصطلحات، وهذا ما جعلهم يستشعرون الحاجة إلى وجود لغة واحدة يمكن الاتفاق عليها . ومن هذا المنطلق حاول بعضهم معتمدا على الأساليب الرياضية المختلفة صياغة نظريات بهدف التخلص من نواحى اللبس والغموض وعدم الاتفاق الذى يكشف بعض النظريات فى العلوم الاجتماعية .

★ الاتجاه الكيفى والاتجاه الكمى:

إن الغالبية العظمى من مشكلات البحث والتعميمات فى العلوم الاجتماعية ذات طابع كيفى، ومن أمثلة التعميمات الكيفية أنه إذا زادت الظاهرة (أ) زادت الظاهرة (ب) وهذه التعميمات تستند إلى الخبرة الشائعة أوالتجربة المألوفة كما أنها تستند إلى البحث والبيانات وكلها تشكل الأسس الامبيريقيه المألوفة للنظرية فى العلوم الاجتماعية إلا أن هذه البيانات قد تكون ذات طابع عددى حتى وإن

كان قد تم التوصل إليها من بيانات كيفية[٣] .

وإذا طرحنا ذلك جانبا وقمنا بمحاولة تصميم نماذج للبحث وأعطينا أولوية للجوانب الرياضية على الجوانب الاجتماعية، فإن كل العمليات التي سوف تسوق أي نوع من أنواع القياس ستظل مبهمة ولايمكن السيطرة عليها، بينما إذا استندنا إلى الشواهد والبيانات الكيفية- كما يحدث دائما- فإننا بذلك نكون قد أضفينا عليها قدراً من الدقة التى تفتقر إليها فى الواقع. وهكذا تبدو الصعوبة التى تكتنف هذه العملية وكيف أنها تؤدى إلى اعتقاد خاطىء فى التحكم والضبط الرياضى. ومثل هذه العملية فى ذاتها تعتبر مصدرا للتهكم والسخرية طالما أنها تفضى- ولو ضمناً- إلى نوع من التكهن العلمى.

وبذلك يمكننا أن نتصور المشكلة لو وضعنا فى الحسبان قواعد الارتباط، أي أنه ينبغى أن تكون هذه القواعد عبارة عن مجموعات معروفة تمثل بعض الأهداف أو العناصر، التى يشار إليها فى العلوم الاجتماعية على أنها المجموعات الطبيعية التى ترتبط بالبيئة المحيطة أو بإطار الاستدلال مع بعض المميزات أو الصفات المختارة التى لايمكن الوقوف إزاءها موقفا محايدا.

وقد قدم كارلينجر Kerlinger شرحا لهذه المسألة جاء فيه : ان البيئة المحيطة أو إطار الاستدلال يرتبط أشد الارتباط مع "U"

(3) James S.Coleman, Introdution to Mathamatical Sociology (Glencoe I 11: The Free Press, 1964) P.26.

اذا اتفـــقنا على أن "U" يشـيـر إلى المعـالجـة بطريقـة كليـة أو موضـوعيـة، وهى طريقة يجب أن تتضمن أي مـوضـوعات نستطيع أن نتحدث عنها، ولذلك فنحن إذا انتقلنا إلى مستوى آخر من مستويات الطريقة الكلية لمعالجة الموضـوع فسنجد أن المستوى الجديد لن يكون مـتضـمنا لشكل الموضـوعـات فـعلى سبيل المثال: عند الحـديث عن الأفـراد فـإنه لايجب أن نتـحـدث عن الطيـور مـثـلا، لأن هذه السلوك يعتبـر خـروجا على مسـتويات الطريقة الموضـوعية للمـعالجة، وهذه المشكلة المتمثلة فى إطار الاستدلال أو فى المعالجة الكلية للموضـوع يحـفـز فكرنا فى الحديث عن الأهداف والعلاقات التى تتضـمنها دون أي شيء آخر[1] .

★ *التأثير الأيديولوجى للاختيار بين الاتجاه الكيفى والكمى :*

تعكس عملية اختيار الباحث لأى من الاتجاهين الكيفى أو الكمى فى التـحليل الكثير من اهتـمامـات الباحث، وعمومـا يمكن القول إن التـحليل الكمى يعـتبـر ذا صـفـات خـاصـة فى العلوم الاجـتمـاعيـة بالولايات المتـحدة الأمـريكية إذا ما قورن بغيره فى البلدان الأخرى، حيث إنه يعتمد على الملاحظة والتجريب وأيديولوجية التقدم، كذلك يرتبط أسلوب التـحليل الكيفى بالموقف أو المكانة السياسية. لذلك فإن اختـيـار البـاحث لأسلوب البـحث يرتبط بالموقف السـيـاسى والنظام الاجـتمـاعى والحالة الراهنة للدولة، بـالإضـافة إلى ذلك فإن اختـيـار

(1) Fred N. Kerlinger: Foundations . of Behavioral Research Educational and Psychological (New York: idolt 1964). p .76 .

الباحث بين الاتجاه الكيفى أوالكمى ينجم عن سلسلة عوامل لعل أهم ما يوضع منها فى الاعتبار هو العلاقات الداخلية بين المتغيرات وفى نفس الوقت النظر إليها على أنها عوامل منفصلة من الناحية التحليلية فقط، بينما تترابط جميعها فى إطار الموقف السياسى والأيديولوجى للباحث نفسه والبيئة التى يعيش فى نطاقها وما إذا كان يتفق فى الرأى مع النظام الاجتماعى الذى يعيش فى ظله .

وقد برز استخدام الاتجاه الكيفى من خلال عملية (الحدس البديهى) وتفهم الدور الذى قام به بعض العلماء فى الصراع الأيديولوجى لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما ظهر غيرهم من العلماء مرة أخرى فى تاريخ المجتمعات الإنسانية، لكن دون توفر عنصر الهيمنة الذى كان يتمتع به العلماء السابقون وهذا يوضح لنا مدى الارتباط الوثيق بين أسلوب البحث والموقف السياسى[1] .

سمات الأسلوب الأول (الكيفى)	سمات الأسلوب الثانى (الكمى)
١- التأكيد على الطابع الكيفى للمتغيرات التى تكون مشكلة البحث وذلك بمقارنتها بمجموعة أخرى من الظواهر تفترض على نحو قيمى .	١- التأكيد على الطابع الكمى للمتغيرات التى تكون مشكلة البحث .
٢- تركيب عناصر موضوع البحث .	٢- الاهتمام ومحاولة تحليل عناصر مشكلة البحث .
٣- الاهتمام بالبعد الزمنى لعناصر موضوع البحث .	٣- الاهتمام بالبعد المكانى والزمنى للعناصر التى توجد داخل

(1) Louis Athusser . Pour Marx (Paris: Maspere 1065) p. 222 .

	مجموعة الظواهر موضوع البحث (بمعنى وضع كل عنصر من عناصره المكونة للمجموعة فى إطاره المكانى والزمانى) .
٤- إنسانية العلاقات الاجتماعية والبحث عن القوانين الاجتماعية التى تحدد التحول من مجموعة الظواهر إلى مجموعة أخرى.	٤- تجسيد العلاقات الاجتماعية (أي تحويلها إلى مسائل مادية)، والبحث عن القوانين الطبيعية التي تحكم مشكلة البحث .
٥- الاهتمام بتاريخ الظواهرأو عناصر البحث بما يعنى عدم إمكانية عكس التسلسل والتغير التاريخى لعناصر موضوع البحث.	٥- إغفال تاريخ موضوع البحث بما يعنى إمكانية قلب وعكس التسلسل التاريخى لعناصر موضوع البحث .
٦- إمكانية إصدار أحكام قيمية .	٦- تجنب إصدار أحكام قيمية .
٧- التركيز على القوى التى تحدد عناصر موضوع البحث .	٧- التركيز على مجموعة الظواهر التى تشكل موضوع البحث .
٨- المماثلة والتحقق والامبيريقى كطريقة نموذجية للتحقق من صدقالمعرفة .	٨- الاعتماد على المنهج التجريبى كطريقة نموذجية للتحقق من صدق المعرفة.
٩- الأخذ بسياسة تعميق المتناقضات فى مجموعة الظواهر موضوع البحث .	٩- تخطيط مصادر مجموعة ظواهر البحث ومحاولة وضع سياسة للتقليل من التناقضات الواقعة بينها (التحكم والضبط التجريبى).
١٠- التأكيد على منهجية التغير واحداث الثورات.	١٠- التأكيد على منهجية الوقائع التى أمكن جمعها.
١١- تميز موضوع البحث بالتغير .	١١- تميز موضوع البحث بالدوام والاستمرارية[1] .

(1) Pablo Ganzalez Casannova, Translated by : Susan Bethe Kapilian, Geozanne Weller: The Fallacy of Social Science Research, A Critical Examination New Qualitative Model, Foreword by Adam Schoff. pergaman press (1981). pp.9-10.

والخلاصة أن الاتجاه الكمى فى العلوم الاجتماعية يعتمد على إمكانية الفهم والتحكم فى التغيرات داخل المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، الدليل على ذلك أنه عندما يبدأ الباحث العمل من خلال مجتمع رأسمالى فى محاولة من جانبه لفهم هذاالنظام وفهم متغيراته دون اللجوء لمحاولة تغييره، نجد أنه يتجه نحو التحليل الكمى، مثله فى ذلك مثل العامل الفنى الذى يعمل داخل نطاق المجتمع الاشتراكى، فهو يحاول أن يتكيف مع البيئة المحيطة به ليحصل على الألفة التى تمكنه من إدارك متغيرات النظام. إن الانتقال من نظام إلى آخر يفترض الانتقال من قاعدة إلى أخرى، لذا فإن التغيرات الكمية فى إحدى هذه القواعد لابد أن تعتمد على مدى التغير فى القاعدة الأخرى والتغيرات الكمية لابد أن توجد فى القاعدة الأخرى التى يتم تغيير بعض بنودها، والتى قد تتضمن مبحث القيم (الأخلاق – الدين – الجمال) داخل القاعدة الجديدة[1] .

★ دعائم الاتجاه الكمى:

يعتبر الاحصاء من أهم دعائم الاتجاه الكمى فى العلوم الاجتماعية فالاحصاء هو العلم الذى يبحث فى أساليب جميع البيانات ووسائل تحليل البيانات بهدف الوصول إلى المعرفة المبنية على أسس رقمية عن المجتمعات محل الدراسة. ويرسى الاحصاء الرياضى دعائمه على أسس بسيطة يمكن للعقل البشرى أن يقبلها دون جدال ويعتبر الأسلوب الاحصائي خط الامان فى أي دراسة

(1) Ibid, 36 .

لمواجهة مشكلة معينة حالية أومتوقعة من أجل حلها[١] .

وعلى ذلك فإن علم الاحصاء ليس علما مستقلا بذاته وإنما يعتبر الاحصاء أداة تخدم العلوم الأخرى فى البحث والاستقصاء والتعبير عن النتائج بلغة مبسطة مختصرة ومركزة تتميز بالدقة وسهولة العرض، بحيث يكون من الميسور نقلها للغير فى سرعة ووضوح وتحديد، كالالتجاء إلى الأرقام والتعبير الكمى والاستعانة بالرموز والرسوم البيانية والجداول والمعادلات الرياضية. فالاحصاء إذن لغة أخرى أو طريقة من طرق الاختزال وتسهيل التسجيل وعرض ما وصلت إليه العلوم والتجارب من نتائج. ويساعد وضع النتائج فى صورة إحصائية على متابعة البحث فيها إذ إن لغة الاحصاء تساعد على حصر مجال التفكير، وتسهيل عمل المقارنات وتجعل من الميسور إخضاع هذه النتائج لخطوات أخرى من التحليل الاحصائى الذى يؤدى إلى إبراز العوامل الرئيسية فيها. ويتميز التحليل الاحصائى بصفة التنظيم والترتيب التى تجعل من الميسور دائما الرجوع إلى التفاصيل والبيانات الأولية التى اتخذت منها الرموز النهائية والتى تكون غالبا ذات معان جزلة مبينة على تجمع سلسلة من الخطوات الاحصائية[٢] . .

★ **الاحصاء فى العلوم الاجتماعية :**

ليس العلم مجموعة من الحقائق والنظريات فحسب، بل هو فى

---

(١) مدنى دسوقى مصطفى : مبادىء فى علم الاحصاء (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨) ص٩ .

(٢) محمد خليفة بركات: الاختبارات والمقاييس العقلية (دار مصر للطباعة، القاهرة ، ١٩٥٤) ص١٠-١١ .

الواقع نظام محكم الطلقات، مترابط الوحدات يحدد علاقة الفرد بمحتويات العالم الذى يعيش فيه، ويفسر الظواهر الطبيعية التى تمسه من قريب أو بعيد، وكلما زاد التقدم العلمى كلما ساعد هذا بدوره على اكتشاف حقائق أخرى جديدة. فالتقدم الفكرى هدف أساسى من أهداف البحث العلمى، كما أنه نتيجة حتمية من نتائجه ، إلا أنه لايحدث دائما أن يهدف الباحث إلى اكتشاف حقائق جديدة بل قد يرمى فى كثير من الأحيان إلى تنظيم الحقائق والنظريات التى سبق اكتشافها ، مما يضطره إلى فحص الصفات والمميزات للحقائق والبيانات العلمية المختلفة وتوضيح العلاقات القائمة بينها. والباحث فى كل هذا يستخدم الوسائل والأسس الاحصائية التى تمده بالوصف الموضوعى الدقيق. وتوضح له العلاقة التى تتطلبها بحوثه توضيحا بعيدا عن العوامل الشخصية. فالباحث الذى يعتمد على مجرد الملاحظة الشخصية غالبا ما تقوده هذه الملاحظة – دون قصد– إلى نتائج لاتنطبق على الوقائع العلمية انطباقا تاما. ومن هنا كان الاحصاء هو عصاالباحث التى تقوده إلى الأسلوب الصحيح والنتائج السليمة. فالباحث محتاج إلى تصميم بحثه على أساس يمكنه من أن يستخلص النتائج التى يهدف اليها وتحقيق الفروض التى يبدأ بها. وأن يستبعد بقدر استطاعته جميع العوامل غير المرغوب فيها والتى قد تؤثر فى النتائج وفى سير البحث ثم فى حساب المعاملات والنتائج الجزئية التى يحتاج إليها فى الخطوات المتتابعة للبحث كالمتوسطات ومقاييس التشتت ومعاملات الارتباط

ومقاييس الدلالة وطريقة التفكير التى يلجأ إليها الاخصائيون عادة تنحصر فى افتراض أن الباحث قد كرر تجربته على أشخاص آخرين عددا لانهائيا - من المرات - فى نفس الظروف التى أجرى فيها تجربته الأولى. فمن الطبيعى أنه سيحصل من هذه التجارب على فروق مختلفة بين متوسط درجات المجموعتين ونستطيع أن نتخيل أن هذا الفرق سيتذبذب فى تلك التجارب العديدة حول قيمة ثابتة يمكن أن نطلق عليها الفرق الحقيقى ونستطيع أن نتخيل اتساع التجربة اتساعا كبيرا، فيصبح التطبيق لا على عينة بل على المجتمع الأصلى الذى اختيرت منه العينتان اللتان أجرى عليهما البحث الأول. والمشكلة فى هذا المثال تصبح مشكلة من مشاكل التفكير الاستقرائى الذى ينتقل من الجزئيات إلى الكليات، أى من نتائج تجربة صغيرة إلى نتائج متوقعة لتجربة أعم بدرجة لايمكن تطبيقها عملياً

★ *المزايا والفوائد التى يجنيها الباحث من الطرق الاحصائية :*

١- تساعد الباحث على إعطاء أوصاف على جانب كبير من الدقة العلمية ودقة الوصف تحتاج دائما إلى اختبار مدى ثبات النتائج التى حصل عليها الباحث فمجرد الوصول إلى النتائج دون التحقق من ثباتها لايكفى عادة كأساس يعتمد عليه فى تغيير الحقائق وتحقيق الفروض .

٢- يساعد الاحصاء على تلخيص النتائج فى شكل ملائم مفهوم

---

(١) السيد خيرى : الاحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية (مطبعة دار التاليف، القاهرة ، ١٩٨٣) ص٣١ .

لأن البيانات التي يجمعها الباحث لاتعطى صورة واضحة إلا إذا تم تلخيصها فى معامل، أو رقم أو شكل توضيحى كالرسوم البيانية .

٣- يساعد الباحث على استخلاص النتائج العامة من النتائج الجزئية فمثل هذه النتائج لايمكن استخلاصها إلا تبعا لقواعد احصائية، كما يستطيع الباحث أن يحدد درجة احتمال صحة التعميم الذى يصل إليه .

٤- يمكنَ الباحث من التنبؤ بالنتائج التي يحتمل أن يحصل عليها فى ظروف خاصة .

٥- فى كثير من البحوث يهدف الباحث إلى تحديد أثرعامل خاص دون غيره من العوامل مما لايتسنى تحقيقه عمليا وهنا يستطيع الباحث أن يلجأ إلى الاحصاء الذى يعاونه على فصل العامل الخاص عن العوامل المحتملة وتحديد أثره على حدة كما يعينه الاحصاء على التخلص من أثر العوامل الأخرى التى لايستطيع تفاديها فى بحوثه والتى تؤثر دائما فى نتائج كل بحث كعوامل الصدفة واختيار العينات .

٦- وقبل ذلك فإن الاحصاء يهدى الباحث إلى تنظيم خطوات بحثه وهو يحتاج إليها فى مرحلة تصميم البحث[١] .

الرياضيات والنظرية فى العلوم الاجتماعية :

إذا كانت النظرية فى جوهرها نسق من القضايا المجردة. كل

---

(١) المرجع السابق، ٣٤.

قضية من هذه القضايا تصور الصيغة العلمية للعلاقة بين الحدود التى تتضمنها القضية. وكل من هذه الحدود يشير إلى نوع عام من المعطيات، أى يشير إلى العام كما هو متميز عن الخاص. ويتبع هذا أن جميع القضايا التى تتضمنها النظرية هى التعميمات فى ذاتها أى أنها تعدد بعض الصفات المشتركة وبعض الانتظامات فى الظاهرة التى تتناولها النظرية[1] .

وتشارك الرياضيات النظرية فى بعض خصائصها ، فهى تتميز بالتجريد وبتحديد صيغ عامة للعلاقات بين الحدود المكونة للنسق الرياضى كما أن هذه الحدود بطبيعتها عامة أكثر منها خاصة، إلا أن هناك سمة تنفرد بها الرياضيات وتزودها بخصائص تفتقدها النظرية، وهى أن الحدود المكونة لعناصر النسق الرياضى عبارة عن متغيرات، وبالتالى تعرف القضايا التى تتكون من هذه الحدود بأنها صيغ Formuals أو دوال افتراضية Propositional Functions وبالطبع هذه الصيغ أو الدوال ليس لها سند امبيريقى على الإطلاق، ولكن طالما تحل قيما معينة محل المتغيرات المكونة للصيغة أو الدالة فإن القضية تجسد بحيث يمكن اختبارها امبيريقيا. ولذا كان هذا النوع من الدوال من أكثر أنواع القضايا التى يمكن صياغتها عن الظاهرة الاجتماعية إذ يجمع نسقها بين المرونة والدقة، بحيث يصبح من الممكن القول بأنه لا يدانيه أى نسق نظرى آخر ،

---

(١) محمد عاطف غيث وآخرون، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة، للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

فبواسطته يمكن أن نعبر عن العلاقات المعقدة والدقيقة بين الوقائع والأفكار مع تجنب الرموز اللفظية تماما(١) .

والحقيقة أن الصفة التجريدية التى تجمع بين كل من الرياضيات والنظرية وكذلك التماسك المنطقى لعناصر كل منهما قد أوجد رابطة ضرورية بينهما بحيث اعتبرت الرياضة أنسب لغة للنظرية سواء فى مجال العلوم الطبيعية. أو العلوم الاجتماعية ، وقد أبرز ناجل Nagel هذه الرابطة بتأكيده على أنه اذا كان للنظرية فى العلوم الاجتماعية أن تتخطى الاختلافات الثقافية فإنها يجب أن تكون على درجة عالية من التجريد وأن تبتعد مفهوماتها ظاهريا عن السمات المألوفة والواضحة فى أى مجتمع وأن تتضمن نتائجها استخداما لأساليب الحساب الرمزى (٢).

محاولات لصياغة نظريات تعتمد على الرياضيات :

حاول فيرى Firey تصنيف تلك المحاولات إلى عدة مجموعات هى :

أ - التصنيفات classifications

ب- المعادلات الامبريقيه Emperical Equations

ج - النماذج المنطقية الرمزية Logistic Models

١- ناهد صالح، الرياضيات والنظرية السوسيولوجية ، عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٤، ص٢٥ .

2) Sorokin, P. "Fadsand Foibles in Modern Sociolo-- gy" Henry Regery company, chicage 1955, p.174.

د- النماذج التصادفية .Stochostic Models

أ- ستيورات دود ونظرية الموقف :

يعد ستيورات دود Dodd أحد ممثلى الوضعية المحدثة New Postivism ولم يعد هذا المصطلح يستخدم الآن إلا فى القليل النادر، حيث يشاع بدلا منه مصطلح علم الاجتماع الرياضى وقد أجرى دود عدة بحوث فى الشرق الأوسط حيث طور المبادىء والأسس التى ارتكز عليها فى مؤلفه الهام أبعاد المجتمع Dimensions of Society ١٩٤٢ والهدف من الأبعاد كما يقول «دود» هو إقامة نظرية كمية للمجتمع أطلق عليها «نظرية ق »- S-theory أو نظرية الموقف، حيث يشير الرمز ق(S) إلى الموقف Situation وهو يذهب إلى أنه من الممكن تحليل المواقف وتصنيفها إلى أربع فئات من المكونات هى :

الزمان Time والمكان Space وهما فئتان شائعتان فى كل العلوم، والسكان وهم يمثلون فئة مشتركة بين كل الظواهر الاجتماعية وأخيرا فئة خصائص السكان وبيئاتهم - ويقول إن هذا التصنيف شامل، لأنه يستطيع أن يستوعب أى شيء آخر ولكن يحدد دود هذه المكونات الأربعة الأساسية ويرمز اليها بالرموز التالية : ت (الزمان) ، ل (المكان) ، ب (السكان) ، ى (المؤشر) والمؤشر بحكم طبيعته يستطيع أن يشير إلى أى شىء آخر ، مثال ذلك : الفلسفة

البوذية وضوضاء المدينة ، والرغبة الإنسانية[1].

أما الخطوة الثانية فى نظريته فهى التعبير عن كل موقف اجتماعى بمعادلة كمية تتألف من أربعة رموز أساسية أوأربعة مكونات. فإذا حدث فى موقف ملموس ان انتفى وجود مكون أساسى أو صعب قياسه، فمن الممكن أن يشار إليه حينئذ بـ (صفى) ، بحيث نتبع بعد ذلك مبادىء الجبر المعروفة وبالتالى تمويل أي كمية أو مقدار إلى (١) . وفى الحالات الأخرى نستخدم الأساس ١ ، ٢ ، ٣ وكذلك الأوسين -١ ،-٢ بحيث تبدو المعادلة على النحو التالى : ل = مواقف لاتتضمن مكانا، ل١ = مواقف تتضمن خطوطا، ل٢= مواقف تتضمن منطقة، ل٣= مواقف تتضمن حجما (بعد ثالث)، ت= لاتتضمن زمنا، ت١= تتضمن الدوام، ت١ = تغير ، ت٢= السرعة، ب= لا مكان، ب١ = جموع ، ب٢ = جماعات ، ى ج = نوع من الأشياء ليكن جنبها، ى ذ = نسبة ذكاء الفرد، ى= خصائص نوعيه، ي + ٢= خصائص مرتبطة. وعلى هذا النحو صاغ دود معادلاته الكمية ، فمثلا نجده يرمز للقوة الاجتماعية بالرمز ت-٢ ى ب ، لأنها تتضمن سلفاالمكونات التالية : سرعة ، والمكان، وسكان، وخاصية مميزة لكل قوة معينة. وهو يؤكد على أن هذا النمط من الصياغة قادر على تحويل الخصائص الكيفية على صيغ كمية. وقد نظر إلى هذه الخصائص باعتبارها تشكل(١). ويقول : إنه من الممكن أن

---

(١) تيماشيف، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرين، دارالمعارف ، القاهرة ١٩٧٢، ص٢٠١.

نحول ببساطة هذه المعادلات الكمية إلى عدد رقمى، وذلك باستخدام أربعة أرقام تحمل أساس المعادلة الكمية.

ولتبسيط هذه الفكرة من وجهة نظره ضرب مثالا لذلك بأن استبدل - ٢ ب ٨، ١ب ٩ ، فإن المعادلة الكمية للقوة الاجتماعية ستؤدى إلى ظهور العدد ٨٠١١، ويعتقد أن كل المواقف الاجتماعية التى يمكن أن نرمز إليها بنفس العدد، لابد وأن تشترك فى خصائص عامة[١] .

الخطوة الثالثة التى اتبعها «دود» فى صياغة نظريته تتمثل فى تصميم «مصفوفة ارتباطية» والمصفوفة كلمة رياضية تستخدم للإشارة إلى ترتيب ارقام معينة فى صفوف وأعمدة ويذهب «دود» إلى أن هذه الأداة (المصفوفة) هى أفضل وأكفأ وسيلة لوصف الجماعة الإنسانية ودراستها، ففى داخل كل خلية (يلاحظ أن الخلية تتشكل بتقاطع الصف مع العمود) يمكن ملاحظة المدى الذى وصل إليه المؤشر (مثال ذلك الحالات التى نقيس فيها الاتجاهات أو السلبية نحو بعض الأفراد) ومن الممكن أن تستكمل المصفوفة على ثلاثة أو أربعة أو خمسة أبعاد وبذلك تتيح كل إمكانيات تحقيق عرض توضيحى فى صورة تقليدية .

وعلى هذا يصوغ «دود» نظريته فى المعادلة التالية :

$$S= (T, L, P, Ipp, IR)$$

١- المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

ب- المعادلات الامبيريقيه :

تعبر المعادلات الامبيريقيه مدخلا دراسياً يستعين بالرياضيات ويتميز عن غيره بإمكانية البرهنة على صحتها وخطئها ولعل المعادلة االتى صاغها كل من Show وMckay من دراستهما للعود إلى الإجرام مثلا لهذا النوع من المعادلات، فقد تبين لهما من خلال هذه الدراسة التى أجرياها فى مدينة شيكاغو، وجود علاقة أمبيريقيه بين معدل الجنوح فى الحى « ونسبة الأحداث الجانحين به.

وقد برهنا على صفحة هذه العلاقة بحيث عبرا عنها بخط انحدار للمربعات الصغرى، وقد أخذ الصيغة التالية : س = ٩٢ . ٢٢ +٨٨٤، ص حيث (س) هى معدل الجنوح فى الحى، و(ص) هى نسبة الجانحين العائدين إلا أن التحقق من صحة هذا النوع من المعادلات على نطاق محدود حال دون الوصول إلى التعميمات أو القوانين التى تكون جوهر النظرية الاجتماعية .

ومع ذلك فإن البعض يأمل أن تكون هذه المعادلات هى البداية الموصلة إلى القوانين العلمية الاجتماعية رغم أن إمكانيات ذلك تبدو - وحتى الآن- محدودة للغاية .

ج- نظرية المباراة: Game Theory

النموذج المنطقى هو الشكل الثالث الذى تأخذه بعض النظريات الاجتماعية الرياضية، ويبنى النموذج من مجموعة قضايا تتصل كل قضية بالأخرى وفقا لقواعد محددة للاستدلال.

وهذا النموذج يبنى من بعض الحدود البسيطة التى ترتبط كل

منها بالأخرى بواسطة صيغ بسيطة أو بديهيات تتميز بالاستقلال كل واحدة عن الأخرى، وغير متناقضة مع بعضها البعض، وكافية لاستخراج النظريات الرياضية المكونة للنموذج .

والنموذج المنطقى يبدأ من الموقف الذى يضم شخصين، إلى الموقف الذى يضم ثلاثة أشخاص وهكذا إلى الموقف الذى يضم «ن» من الأشخاص ويترتب على الانتقال من موقف إلى آخر تعقد الظواهر المتنوعة المرتبطة بالموضوع الذى يتناوله النموذج، وفى الوقت ذاته تزداد صعوبة الإحاطة به، ويصبح من الواضح عاما عدم كفاءة الرموز اللفظية فى تمثيل هذه الظواهر.

فضلا عن ذلك فإن من النادر أن تتم عملية الاستنباط التى بموجبها اشتقت النظريات البرهانية المكونة للنموذج عن طريق الاستدلال اللفظى، ومن هنا كان لابد من اللجوء إلى الرياضيات ورموزها لبناء نموذج منطقى[1].

وتعد نظرية المباريات Games Theory من الأساليب ذات الكفاءة العالية التى تقدمها الرياضيات الحديثة لدراسة السلوك الإنسانى وهى تضع فى اعتبارها الخصائص الأساسية لمفهوم العقلانية من التصرف Rationality [2].

ء- نظرية الأشكال: Graph Theory

قدم الدكتور نادر فرجانى فى مقال له بعنوان : استخدام

(١) ناهد صالح، مرجع سابق، ص ٦٥ .

(٢) نادر فرجانى، مرجع سابق، ص ١٧ .

الأساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الانسانية مثال لتطبيق أحد فروع الرياضة الحديثة نسبيا وهى نظرية الاشكال فى مجال نظرية التنظيم Organization Theory وتبحث نظرية التنظيم هذه فى الطرق التى تتكون بها مجموعات من البشر فى مجالات مختلفة وقد قدم مشكلة مبسطة فى نظرية التنظيم، ثم ذكر بعض المبادىء الأساسية لنظرية الأشكال وطبقها على المشكلة محل الاختيار .

سنعتبر أن أى عضوين فى بناء اجتماعى معين تربطهما علاقة واحدة وأن هذه العلاقة إما أن تكون مرضية أو غير مرضية، أو محايدة، العلاقة المرضية قد تعنى أن العضوين يحبان بعضهما أو يعتنقان أراء متماثلة أو يمكن أن يعملا معا عكس هذه الصفات يحدد العلاقة غير المرضية وإذا كانت العلاقة لاتوصف بأنها مرضية أو غير مرضية، سنسميها محايدة، والغرض هنا هو تحديد بعض المعايير التى يمكن إذا توفرت لبناء اجتماعى معين اعتباره متوازنا طبقا لمفهوم معين .

ونظرية الأشكال تناسب تماما الصياغة الدقيقة لمشاكل البناءات الاجتماعية والشكل Graph هو مجموعة من الأشياء نسميها نقطة Points ووصلات بين هذه النقط نسميها خطوط Lines ونظرية الأشكال تدرس خصائص الأشكال التى لاتتغير للأشكال المتناظرة بمعنى آخر خصائص الشكل ش التى تكون صحيحة لكل الأشكال المتناظرة معه ولا شك أن الأشكال ذات الإشارات تعد وسيلة ملائمة للصياغة الرياضية للعلاقات المرضية وغير المرضية فى أى بناء

اجتماعى. فأعضاء البناء الاجتماعى يمكن تمثيلهم بنقط والعلاقات المرضية بخط بإشارة موجبة، والعلاقات غير المرضية بخط بإشارة سالبة وإذا لم يوجد خط بين النقطتين نعتبر العلاقة محايدة[1].

النموذج الرياضى Mathamatical Model

يوصف النموذج الرياضى بأنه ذلك الذى تكون مادته ذات طبيعة رياضية وتعتمد عملية التحديد الرسمى لخواص أي نموذج على الدقة التى تتحدد بها نوعية مركباته المختلفة وتجمع معا.

ويصدق هذا بصفة خاصة بالنسبة للنماذج الرياضية. وتختلف النماذج الرياضية أساسا عن النماذج بصفة عامة فى أنها تخضع للمعالجة الماهرة بالأساليب الرياضية. وبذلك فإن التنبؤات التى يحصل عليها من هذه النماذج تؤدى إلى براهين رياضية منطقية .

وتنفرد النماذج الرياضية بأنها الوحيدة التي تسمح بميكنة وأتوماتية النشاط العقلى وحتى الآن لم تتوفر فصيلة فعالة لتضخيم مقدرة الإنسان العقلية ولايمكن التوصل إلى هذا بالاستخدام النماذج الرياضية ومعالجتها ببراعة بمساعدة الحاسبات الالكترونية وبشكل الاستخدام الذى يتزايد باستمرار للنماذج الرياضية فى مختلف فروع المعرفة ما يعرف تواترا بأنه «رياضة العلم».

١- بلاجوخست سندوف : بعض مبادىء لصياغة النماذج الرياضية، ترجمة ابراهيم البرلس (مجلة العلم والمجتمع، العدد ٤٦، مطبوعات مركز اليونسكو، ١٩٨٢) ص١٦ .

ومع أن مصطلح «نموذج رياضى» اكتسب ذيوعا كبيرا فى السنوات الأخيرة فإنه ليس اختراعا حديثا بأي مقياس. فاكتشافات الفيزياء فى جوهرها نماذج رياضية ولو أنها توصف غالبا بأنها قوانين فيزيائية.

وتبع اكتشافات «كبلر» أن عبر «نيوتن» عن قانون الجاذبية الكونية بالمعادلة الرياضية التالية :

$$ق = \frac{أ ك١ \times ك٢}{ف٢}$$

حيث ق= قوة الجذب بين أى جسمين فى الكون، وهى تتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما (ك١،ك٢) وعكسيا مع مربع المسافة بينهما (ف) ويمثل هذا القانون فى الحقيقة نموذجا رياضيا نمطيا يمكن أن يطبق أسلوبا رياضيا نمطيا للتوصل إلى نتائج بالغة الدقة وتفسيرات تتقبل بجوانب كثيرة من الحقيقة الموضوعية وخلال التاريخ قدم اكتشاف الكوكب «نبتون» دليلا بارزا على صحة هذا النموذج واليوم يتيح هذا النموذج نفسه إجراء حساب المسارات المعقدة للأقمار الصناعية وسفن الفضاء وأثبتت التنبؤات المبينة على نموذج «نيوتن» أنها دقيقة بدرجة غير عادية ومفيدة ومع ذلك يعتبر علماء الفيزياء المحدثين أن قانون الجاذبية الكونية ليس تام الصحة ويستخدمون قانون «اينشتين » للجاذبية.

وإذا كنا نفضل الحديث عن نماذج رياضية لظواهر فيزيائية على الحديث عن قوانين فيزيائية فإن هذا ليس بدافع تفضيل المصطلحات

المستخدمة وأنه في وصف اكتشاف «نيوتن» بأنه نموذج رياضى فمن الطبيعى السماح بهامش من عدم التيقن يتعلق بدقة التنبؤ المستمد. ونسلم باحتمال وجود مجال لتحسين النموذج ومن ناحية أخرى فإنه إذا اعتبر قانون «نيوتن» حقيقة مطلقة فإن أى مشاهدة تتعارض معه تهز الثقة فى صحته وتاريخ الفيزياء مليء بتجارب مؤلمة أثارها إسقاط نظرية لصالح أخرى فى حين أن لحظات الصدق هذه ليست فى حقيقتها أكثر من تسلسل طبيعي لا مفر منه للأحداث يرتبط بالتدقيق المتصاعد للنماذج الرياضية المتعلقة بظاهرة طبيعية معينة.

واستخدام النماذج الرياضية التى تنطبق على نطاق واسع فى مجالات أخرى من العلوم بالإضافة إلى الفيزياء – يشكل فى الحقيقة واحدة من أكثر أدوات البحث شمولا وقوة ، ويفيد بصفة خاصة لأنه أقل تكلفة واستغراقا فى الوقت من أسلوب التجريب التقليدى وفى هذا الإطار فإن الدراسات ذات الطبيعة النوعية أو الكمية التى تطبق على نموذج رياضى للظاهرة موضوع الدرس وضع استنادا إلى افتراض معين تعتبر وسيلة سريعة وقليلة التكلفة لتحديد صحة مثل هذا الافتراض فإذا كانت نتائج هذه الدراسات لاتتفق بصورة مقنعة مع نتائج المشاهدة الفعلية للظاهرة فهذه إشارة موثوق بها على أن الافتراض الرئيسى غير صحيح. ومن ناحية أخرى فإن الاتفاق الجيد بين النتائج التى يقدمها النموذج ونتائج المشاهدة لا تتضمن بأى حال أن الافتراض سليم، بل إنها تقترح أن الافتراض مقبول ويتطلب تحقيقا أوسع بإسلوب التجربة وبعبارة أخرى فإن استخدام النماذج

لايحل محل التجربة الفعلية بل يقتصر على أن يدخلها فى إطارالمنطق .

والخلاصة أن النماذج الرياضية تختلف بصورة جوهرية عن النماذج بصفة عامة نظرا لأنها تخضع للمعالجة العميقة مستخدمة الأساليب الرياضية المختلفة لأن استخدام النماذج الرياضية يسهل أو ييسر عملية التنبؤ وذلك من خلال براهين واستدلالات رياضية منطقية ولايمكن أن نتجاهل الدور الأساسى الذى تلعبه الحاسبات الآلية فى إبراز الدور الذى يمكن أن يلعبه النموذج الرياضى فى عملية التحليل[1] .

ظهر من خلال ما عرضنا فيما سبق أن جانباً كبيراً من العلماء حاولوا صياغة نظريات فى مجال العلوم الاجتماعية تعتمد أساسا على الرياضيات، إلا أنه يمكن القول أن دور الرياضيات بالنسبة للنظريات الاجتماعية يمكن تلخيصه فى أنها قد تسهم فى تخليص النظرية من أى لبس أو غموض يكتنف المفهومات الأساسية التي تنطوى عليها. وإن كان قد ظهر فى التراث نظريات يغلب عليها الطابع الفلسفى وآخر يغلب عليه الطابع الامبيريقى، فإنه يمكن أن يكون للرياضيات دور فى إعادة صياغة تلك النظريات .

ويمكن أن يحقق استخدام الرياضيات فى العلوم الاجتماعية مزيدا من الاتفاق بين العلماء حول محتوى النظريات السوسيولوجية وذلك حين يتم التعبير عن مضمون هذه النظريات ومكوناتها فى

١- المرجع السابق ، ص٢٠.

صور كمية من خلال معادلات أوأرقام أوأية صيغة رياضية أوإحصائية ملائمة، حيث لايمكن أن يختلف اثنان من العلماء حول لغة الرقم . وإن كان الاعتماد على الأساليب الاحصائية فى العلوم الاجتماعية قد ساعد على تحقيق مزيد من الموضوعية والحيادية بالنسبة لموضوعات البحث المختلفة ونتائجها ، فإن الباحث فى العلوم الاجتماعية عليه أن ينتقى من بين الأساليب والطرق الإحصائية ما يلائم موضوع البحث وإجادته لاستخدام تلك الأساليب الاحصائية المختلفة .

***

إشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا

د. مصطفى عمر(*)

(*) قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب- جامعة الاسكندرية

مقدمة:

إن القاعدة الأساسية التى نحاول الاعتماد عليها فى مناقشة طرائق البحث الأنثربولوجى وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هى معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الاختيار بين البدائل النظرية المتاحة. وينتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة. لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة الإنسانية بصفة عامة هي أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفة من الباحثين، وهى أكثر أيضا من مجرد جمع الوقائع، كما أنها أكثر من منظور واحد لرؤية العالم الأنثروبولوجى، فلايمكن مثلا أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤديا إلى المعرفة النظرية، فهناك فارق كبير بين «الوقائع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تعد المطلب الأساسى للمعرفة ولتقويم النظريات، فكثيرا ما يخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الأنثروبولوجى هى مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه، حقيقة أن البحث الأنثروبولوجى يعطى للباحث السبل والإجراءات التى يسترشد بها فى جمع المعلومات والبيانات، لكن القضية الأساسية تكمن في سؤال مهم مؤداه: ما هوى المعنى الحقيقى وراء هذه البيانات أو المعلومات فنحن نقرأ عددا كبيرا من البحوث التى تجعلنا نقف على بعض الوقائع والبيانات أو المعلومات، لكننا لانستطيع أن نتعرف على دلالة هذه المعلومات، إذن ، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات، أو حتى تطور أساليب الحصول عليها، لن

يؤدى فى حد ذاته إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظرى المنهجي، الذى يهتم بالتفسير والتأويل والتحليل واكتشاف المعانى، وبين ما يعرف اصطلاحا باسم النزعة الإمبيريقية Empiricismالتى تتجه أساسا نحو تصوير مهمة علم الأنثروبولوجيا بصفة خاصة، والعلوم الإنسانية بصفة عامة، على أنها البحث من أجل جمع الوقائع أو البيانات الوصفية (الأثنوجرافية) Ethnographic Data. لذلك فإن الأمبيريقية حين تتعرض للمعنى النظرية ، فإنها تعرفها فى حدود هذه النزعة أيضا على أنها تعميم يعتمد على الوقائع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها .

وعموما، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج، تحتاج، دون شك، إلى تصورات نظرية دقيقة. فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم بأن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها، وإنما طبيعة الموضوع الذى نتناوله بالبحث هى التى تحدد اختيارنا للمنهج الملائم. ومن هنا يمكننا القول بأننا لانستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ، وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسسس نظرية، ويجب تبريرها وفهمها فى إطار هذه الأسس[1].

---

(١) محمد على محمد، ١٩٨٣، «علم الإجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه» دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية، ص٣.

ولعلنا نجد أن أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات، ذلك التمييز الحاسم الذى يبدو فى هذه الأيام بين المنهج الكمى، المنهج الكيفى، باعتبارهما طريقتين منفصلتين، أكثر منهما متكاملتان، إذن المناهج تعد باختصار شديد طرقا لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص. ولعل ذلك يجعلنا ننظر إلى المنهجين على أنهما يمثلان طرقا مقترحة لحل مشكلات جمع البيانات، وإستخدام أدوات البحث ، الأمر الذى يجعلنا فى النهاية نركز الاهتمام على مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوع أو للمشكلة موضوع البحث والدراسة. ويمكن أن نخلص من ذلك إلى نتيجتين أساسيتين **الأولى**: هى أن المناهج هى أدوات أو طرق تخدم أغراضا ملموسة، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقتضى تنوع أساليب حلها وتناولها، وهذه الغاية هى التى تحدد الحاجة إلى استخدام الحلول أو المناهج الكمية أو الكيفية. **والثانية**: أن المناهج لاتستخدم استخداما مجردا، ولكنها تستخدم باعتبارها أساسا لمشكلات مادية ملموسة، نحاول التوصل إلى حلول لها.

* ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لإشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا فى التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة فى الدراسات الأنثروبولوجية ، وسوف تأتى المعالجة على النحو التالى :

اولا مناهج الانثربولوجى :

تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة

فى إجراء البحوث والدراسات الأنثروبولوجية، لعل من أهمها : المنهج التـاريخى - المنهج المقـارن - المنهج البنائي الوظيـفى - وسـوف نتناولها بشىء من التفصيل .

أ-المنهج التـاريخى: يستخدم مصطلح التاريخ الاجتماعى Socical History للإشـارة إلى دراسـة التـغيير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخاصة به، وتطورالنظم الإجتماعية، والتحول فى المفاهيم والقيم الاجتماعية، وقد ارتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادى Economic History، وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسي، ويرجع الفضل إلى العالم العربى المسلم ابن خلدون، والعالم الإيطالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الاجتماعى، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديد» حيث استطاع أن يحول الاهتمام فى التاريخ السياسى من الحروب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية.

أما العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون، فقد عرف التاريخ تعريفا اجتماعيا فالتاريخ عنده يهدف إلى اعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للإنسان، يعني حضـارة الإنسان، ويهدف كذلك إلى معرفتنا بالظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة، وإلى معرفة الحياة البدائية والأخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع. لذلك فإن علم (العمران البشرى) يهتم

بدراسة التاريخ الاجتماعي على هذا النحو، بحيث يبحث في «مسائل الاجتماع الإنساني والعمران البشري وما يلحق بها من عوارض» .

* ومنهج التاريخ الاجتماعي عن ابن خلدون، أوالدراسة الاجتماعية للتاريخ، يعد منهجا ديناميكيا بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وانتقالها من حالة إلى أخرى. ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، ويرجع هذا الاختلاف أو التباين في أحوال المجتمعات إلى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية، فالمجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته والمجتمعات تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهي بمرحلة الاضمحلال، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .

وفي الانثروبولوجيا أو علم الإنسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية علي أهمية مفهوم التاريخ الثقافي Cultueral History، فيذهب ميتلند Maitland إلى أن : «الأنثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الإطلاق» وأكد بول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة في مؤلفه «منهج الأثنولوجيا» ويذهب بيركت سميث K.Birket sionith إلى أن «الحاضر لايمكن فهمه إلا كنتاج للماضي» لذلك فإن المشكلة الحيوية للأثنولوجيا - كما يفهمها - يتعين أن تكون

مشكلة تاريخية كذلك افتتح سابير E. Sapir مقاله الكلاسيكى الشهير عن «منظور الزمان» بقوله «إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الاعتراف بأنها علم تاريخى أساسا. فالمعلومات التى نحصل عليها يتعذر فهمها سواء فى ذاتها أو فى صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للأحداث التى تضرب بجذورها فى الماضى السحيق ، ومن الضرورى أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخى للوقائع بوصفها الهدف الأثنولوجى الخاص بالباحث».

وعموما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافى يكتسب الحقيقى ودلالته فى ضوء علم المناهج، وتنقسم المناهج فى هذا الصدد إلى قسمين : قسم أنثروبولوجى ، قسم وصفى تاريخى.

أما القسم الأنثروبولوجى فهو يعطينا المداخل التى يمكن بواسطتها الكشف عن اعتبارات الزمان وصياغتها فى تصورات ثقافية محددة، أما القسم التارخى فهو الوسيلة التى بواسطتها ستصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التى ندرسها، والنتاج النهائي لذلك كله هوالتاريخ الثقافى .

وهذا تحتل الثقافة فى الأنثروبولوجيا مكانة رئيسية ، ويعد البحث التاريخى للثقافة مطلبا هاما وحيويا بالنسبة للأنثروبولوجيا الثقافية، ويعكس هذا الاهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها، وعمليا إعادة بناء تاريخ الثقافة، وتقوم هذه الدراسة على أساس دراسا توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التحقق من مدى إمكانية حدوث احتكاكات واتصالات بين الوحدات الثقافية، بل يمكن أن

تشكف أيضا التتابع الزمنى الذى ظهرت فيه هذه الاحتكاكات والاتصالات .

أما علماء التأويل التاريخي للثقافة من أمثال كروبر Kroeber فإنه يرى أن التاريخ هو في جوهره محاولة لإعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة، وليس معالجة التتابعات الزمنية. ولهذا اعتقد أنه يمكننا الاعتماد على المنهج التاريخي فى دراسة الأحداث والوقائع الحالية، وكذلك فى دراسة الظواهرالتي تحدث في زمن محدد، وهو ما يعرف باسم الدراسات المتزامنة Synchronic، هذا فضلا عن دراسة الظواهر التى تحدث فى أزمان متعددة Diachronic فكأن ماهية التاريخ لاتنحصر فى عنصر الزمن كما أن الذى يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلى لأية مجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين بالذات. وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى اعتبارها عنصر الزمان إلى جانب عنصر المكان، وهذا هو المحك الأساسى الذى تقوم التفرقة بين العلم والتاريخ، ولاشك أن هذا الإصرار على أهمية المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية المحدثين[٢] .

وعلى ذلك ، فإن الاهتمام بتاريخ الإنسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الأنثروبولوجية وقد تمثل ذلك في الدراسات

---

(٢) أحمد أبو زيد ١٩٧٤ «البناء الاجتماعى المفهومات» الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ص١٤٠.

المقارنة للمجتمعات والنظم والاجتماعية، وفى محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها، فقد اعتمد كل من فولتير Voltaire وجوستاف كلم Gustav Klemm وسير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان G.F. Mclennain وباخوفى Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel De Coulanges ولويس مورجان L.H. Morgan وإدوارد تايلور E.B. Tylor اعتمدوا جميعاعلى المصادر التاريخية فى إقامة علم اجتماع مقارن وفى الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية المعاصرة سنجد أيضا اهتماما واضحا بالمصادر التاريخية فيما يعرف اصطلاحا باسم «الذاكرة الثقافية» Memory Culture حيث تحاول المدرسة التاريخية أن تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل .

ويعتمد علماء الأنثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية فى تحقيق أهدافهم هى :

(١) الوثائق المكتوبة Writtrn ولكن هناك صعوبات تواجه الاعتماد على هذه الوثائق، وخاصة فى المجتمعات التى لاتوجد عنها وثائق مدونة،.

(٢) التراث الشفاهى Oral Traditions، حيث يغطى التراث الشفهى أنواعا متعددة من الظواهر والأنظمة والعلاقات الاجتماعية، ويمكن أن نعثر على التراث الشفاهى من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية، حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر فى

البحوث التاريخية الأنثروبولوجية .

(٣) البحث الحقلى Field Work، حيث يمثل البحث الحقلى القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدراً رئيسيا للمعلومات، وجزءا رئيسيا من تدريب الباحث الأنثروبولوجى، وذلك بهدف إبراز الوظائف المختلفة للأنساق الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها إلى جانب تقويم وصف دقيق ومتكامل للحياة الاجتماعية فى مجتمع أو ثقافة معينة، وهذا لن يتم إلا من خلال إجراءات وأساليب البحث الحقلى .

ب- *المنهج المقارن* : يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق على علم الأنثروبولوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته، حيث أن أي بحث أنثروبولوجى ينطوى بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة فى البحث الأنثروبولوجى، حيث يقصد به عادة «دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة، أو أنماط محددة من المجتمعات، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذى يطرأ عليها، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض» .

* أما عن مجالات البحث المقارنة فى الأنثروبولوجيا فهى تتلخص فيما يلى :

(١) دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الاجتماعى، ويشمل ذلك أيضا دراسة السلوك السياسى للأفراد مثل التصويت فى الانتخابات وغيرها، وكذلك دراسة السلوك الإجرامى

ومعدلات الجرائم فى المجتمع وأنماطها فى مجتمعات مختلفة .

(٢) دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية، والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية فى مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسات الطابع القومى National character[٣] .

(٣) دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات Organizations، وخصوصا التنظيمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية، والتنظيمات السياسية والصناعية والمهنية فى مجتمعات مختلفة .

(٤) دراسة النظم الاجتماعية Social institutions، والتى بالضرورة تنقسم إلى أقسام فرعية، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أى دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة، ثم دراسة الأنساق الثقافية مثل المعتقدات الدينية، ودراسة العمليات التى تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية، ودراسة النظم الفرعية كالعادات والفولكلور، وهى دراسات ذات صلة وثيقة بالأنساق الثقافية .

(٥) تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها. فعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقا للنمط الرئيسى السائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجود فيها .

---

(3) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe' Fress, P.228.

* أما عن الصعوبات المنهجية والنظرية ، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عددا من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالى :

(١) مشكلة اختيار وحدة المقارنة التي على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية فى البحث .

(٢) مشكلة تحديد المؤشرات التى نقارن على أساسها بينالمتغيرات، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعا لاختلاف وحدة المقارنة.

(٣) مشكلة إمكانية المقارنة Comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة .

(٤) مشكلة المعاينة Sampling، فالعينات الصغيرة نسبيا لوحدات المقارنة تثير تساؤلا عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموما هى مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلى، ففى الدراسات المقارنة التى تهدف إلى اختبار الفروض أو القضايا العامة، تكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصلى الذى تنتسب إليه مسألة بالغة الأهمية.

وهذه الصوعبات المنهجية تختلف عادة باختلاف المادة اللازمة للتحليل المقارن[٤]

ج – المنهج البنائى الوظيفى : بعد أن تطورت الأنثروبولوجيا فى

---

(4) warwick D,& samuel osherson, "Comparative Research / methods" N.J prentice Hall. 1973. pp.43. 47.

الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت إتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التي صاحبت استخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقا تقليديا. وبذلك ظهر ما يعرف الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية باسم **«الاتجاه الوظيفى»** الذى أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر فى إطارها وسياقها الكلى لهذا فهم يبتعدون عن المقارنات التى حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائي عزلا تحكميا. لكن الشىء الملاحظ فى الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لا زالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل ويصعب الاستغناء عنها فى دراساتهم. لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاتجاه الوظيفى يهدف إلى التوصل إلى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم فى المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وإلى تصنيف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها، والمقارنة بينها فى محاولة لاكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية، ومعنى ذلك أن الوظيفية سوق تستعين بالطريقة المقارنة إستعانة مباشرة لتحقيق أهدافها. ومنهنا اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيما قويا بعد أن كتب نادل Nadel بعض الدراسات الأنثروبولوجية، والتى أكد فيها على الحاجة الملحة والماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية فى مواقف صناعية تمكننا من المقارنة بينها، وهو يؤكد أن علماء الأنثروبولوجيا يتمسكون دائما بالسياق الأشمل، ويتمكنون من عزل العناصر عن سياقها دون أن تفقد معناها(٥) .

(5) Nadel, op.ct p.230.

* لذلك حاول المنهج البنائي الوظيفى المزاوجة بين المنهج المقارن، والاتجاه الوظيفى فى الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية فى سياقها الكلى من ناحية، والتعرف على الأدوار والوظائف التي يؤديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية أخرى، لمعرفة طبيعة البناء الاجتماعى Social structure للمجتمع ككل .

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطى مثالا لتلك الدراسة الشهيرة و الرائدة فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية، والتي قام بها مالينوفسكى Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتفسيرها فى إطار بنائى ووظيفى، تلك الدراسة التى ضمنها كتابه الذى يحمل عنوان : قبائل الأرجونوتس بالمحيط الهادى Argonauts of the western Pacific الذى نشره فى عام ١٩٢٢، حيث استخدم المنهج البنائي الوظيفى فى دراسة النشاط الاقتصادى الذى يمارسه سكان جزر التروبرياند والذى يعرف بنظام الكولا Kual System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة فى نوع من التحالف أو الاتفاق يهدف إلى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طويلة من الصدف الأحمر، و«أساور» من الصدف الأبيض. ويتألف نسق التبادل فى أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر فى إتجاه واحد لايتغير حول محيط الدائرة تنظم الجزر، بينما تنتقل الأساور فى الإتجاه المضاد، وهذه السلع لاتحمل قيمة عملية على الإطلاق بقدر ما لها قيمة شعائرية

وطقوسية، كما أنها تتصل اتصالا وثيقا بالمركز الذى يحتله الفرد فى المجتمع(٦) .

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة فى الأنثربولوجيا، وبخاصة فى المدرسة الأمريكية، تنظر إلى الثقافة عموما، باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة، بل والمتباينة فى نشأتها، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلاو مالينوفسكى، حيث تتخذ الوظيفية عنده جانبين **الأول** : يذهب إلى أن كل ثقافة هى عبارة عن كيان كلى وظيفى متكامل شبيهة بالكائن الحى، ولانستطيع أن نفهم أى جزء من أى ثقافة إلا فى ضوء علاقته بالكل. **الجانب الثانى**: هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الإنسانية ، وتفسير وجودها فى المجتمعات. وهنا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية(٧) . فى حين يوجه «رادكليف بروان» R.Brown اهتمامه إلى دراسة المجتمع لا إلى الثقافة، فيؤكد أن المجتمع يتكون من أجزاء متداخلة وظيفيا، وهو بذلك يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية :

١- الوصف الدقيق للأداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فى المجتمعات الإنسانية، مؤكدا على دورها فى الحفاظ على البناء

---

(6) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific,." London , Rouledge & kegn Paul, 1922. pp.22-24.

(٧) محمد محمود الجوهرى، ١٩٩٥ «الأنثروبولوجيا : أسس نظرية» دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٩.

الاجتماعي.

٢- التصنيف المنهجي للظواهر الاجتماعية.

٣- صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية .

* لذلك فإن المنهج البنائي الوظيفى يهتم اهتماما كبيرا ببناء الثقافة، والعلاقة القائمة بين أجزائها، كما يهتم أيضا بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما، والتى تتساند مع بعضها تساندا وظيفيا .

ثانيا: طرق وادوات البحث الانثروبولوجي:

لقد أصبحت الأنثروبولوجيا علما يعتمد على مناهج متخصصة فى البحث، إلى جانب أنها أصبحت فنا بممارستها بعض الطرق والأدوات الفنية الدقيقة فى إجراء بحوثها الحقلية.، هذا فضلاعن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الإنسانية. وقد أصبحت الفكرة القائلة «بأنه يتعين على الأنثروبولوجى أن يبحث بنفسه عن البيانات التى تحتاج إليها دراساته بدلا من الاعتماد على كتابات الرحالة «فكرة شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد قام ، فراتر بواس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامى ١٨٨٣-١٨٨٤، ثم قام هادون Hadon فى انجلترا على رأس بعثة جامعة كمبردج لدراسة منطقة مضايق توريس Torres straits فى المحيط الهادى بين عامى ١٨٩٨-١٨٩٩، وكانت هذه الرحلة علامة مميزة فى تشكيل الانثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع، ويعتمد على الخبرة الحقلية، باعتبارها عنصراً جوهريا فى

تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم(٨) .

أما عالم الأنثروبولوجيا الشهير مالينوفسكى، فهوالذى عمل على تدعيم البحث الحقلى فى ميدان الأنثروبولوجيا، فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trabriand فى ميلانيزيا أمضى فيها فأربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨. وهى فترة تطول كثيرا عن المدة التي أمضاها أي باحث أنثروبولوجى من قبل، كما كان مالينوفكسى أول أنثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى فى إجراء البحث، وكان كذلك أول من عاش مع الأهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة. وترجع أهمية دراسات مالينوفسكى الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب لن يتحقق إلا إذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع يؤلف جزءا ضروريا من تدريب الباحث الأنثروبولوجى .

* ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Integerative فى الأنثروبولوجيا لن يتحقق إلا إذا اتصل الباحث اتصالا مباشرا ووثيقا بالمجتمع والثقافة التى يتناولها، وهذا مايعرف بالدراسة الحقلية .Field- dtudy. أى أن الباحث عليه أن يعايش المجتمع ويلاحظ نظمه ملاحظة مباشرة ودقيقة .

* وعموما ؛ فإن أهم الطرق والأدوات المستخدمة فى البحث الأنثروبولوجى يمكن ذكرها على النحو التالى :

(٨) أحمد أبو زيد، ١٩٥٦ «الطريقة الأنثربولوجية فى دراسة المجتمع».. حوليات كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، المجلد العاشر ص٣-٥ .

(١) الملاحظة بالمشاركة Participant observation.

(٢) الإعتماد على الإخباريين Informants.

(٣) الإقامة فى مجتمع البحث

(٤) إجراء المقابلات Interviewes

(٥) استخدام أدوات التسجيل (الكتابية، الصوتية، والمرئية..الخ).

(٦) دراسات الحالة Case studies.

* **أما عن أداة الملاحظة بالمشاركة** فهى تتلخص فى أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الأشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبيا، قد تمتد إلى ما يقرب من العام، وذلك للتعمق فى فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، وقد استخدمت هذه الطريقة فى البحوث الانثروبولوجية، وبخاصة فى دراسة مجتمعات كلية وثقافات وأحياء، ومدن ومصانع وجماعات، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلا فإن عليه أن يدرس العمال والإدارة دون أن يتحيز إلى جانب فئة معينة منهم، وهو يندمج فى الواقع الذى يعايشه، ولكنه يحاول قدر المستطاع أن يصوره تصويرا موضوعيا .

وهنا لابد من الإشارة إلى الإلتزام الاخلاقى للقائم بالملاحظة، فاستخدام الملاحظة المشاركة يقتضى من الباحث الإقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والاندماج مع اعضائه، وهو فى هذه الحالة يتعرف على كل ما هو «تحت السطح» ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند

مرحلة كتابة تقرير البحث ونشره، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه الصدق والتزام الصدق المطلق؟ أم أنه يحذف بعض الأمور التى تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة والتى استطاع إدراكها من خلال العلاقة الوثيقة التي تطورت أثناء إجراء البحث، وربما يكون فى حذف هذه المعلومات وإخفائها تشويها لنتائج البحث، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضررا لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات، لذلك فإن مواجهة تلك المعضلة يعتمد إلى حد كبير على أخلاقيات الباحث القائم بالملاحظة المشاركة. لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية ، والتى من الممكن أن يستفيد منهاأعضاء المجتمع أنفسهم فى البرامج التى تهدف صالح أعضاء المجتمع، ولن تضير المجتمع بأي حال من الأحوال .

* أما طريقة الاعتماد على الاخباريين: فهى تعتمد على الاستعانة ببعض المرشدين أو بعض الإخباريين Informants الذين يكونون فى العادة من السكان الأصليين للمجتمع نفسه، ويقومون بدور أساسى يتمثل فى تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمختلف ظواهره، كما يكون لهم دور فى تعليم الباحث الأنثروبولوجى لغة الأهالى، لكن ذلك لايعنى أن يكتفى الباحث الأنثروبولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التي يحصل عليها عن طريق الإخباريين بل عليه أن يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أويقال له، ومن ثم فإنه يتخذ من الإخباريين مدخلا للإندماج فى المجتمع والتعرف عليه، لذلك لابد أن

يستعين الباحث الأنثروبولوجي فى دراسته الحقلية بعدد من الأشخاص الذين يشغلون مراكز وأوضاع أساسية فى مختلف قطاعات البناء الاجتماعى ويفترض أن يكون لدى هؤلاء الإخباريين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة، وهذا لايمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على إخبارى أساسي، بحيث يعتبره معاونا أساسيا له فى الدراسة .

ومن المواد التى يفيد منها الباحث الأنثروبولوجى، والتى يحصل عليها من بعض الإخباريين، تلك المادة المسجلة سواء كانت صورا فوتوغرافية، أو أشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة، أو أفلاما لبعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، يمكن أن تفيد الباحث فائدة محققة فى إجراء بحثه والإلمام بعناصر البناء الاجتماعى لمجتمع بحثه .

***والإقامة فى مجتمع الدراسة:** تتطلب ضرورة أن يتعلم الباحث اللغة الوطنية التى يتحدث بها الأهالى، لأنه حين يتكلم لغة ذلك المجتمع، فإنه يتعلم فى نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية التى تتبلور فى مصطلحات تلك اللغة وألفاظها، فكل شىء فى حياة الأهالى الاجتماعية يعبر عنه إما فى شكل ألفاظ، أو فى شكل أفعال، أي إما بالقول أو العمل. وحينما يصل الباحث إلى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات يكون قد استكمل دراسة المجتمع .

* أما عن المقابلة : فهى أداة للبحث تمثل الحوار اللفظى الذى يتم وجها لوجه بين الباحثالقائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو مجموعة أشخاص آخرين ،

وعموما، فإن المقابلة تتكون من ثلاث عناصر متميزة هى :

أ- القائم بالمقابلة Interviewer.

ب- المبحوث. . Interviewee

ج- موقف المقابلة The Situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة على نحو يؤثر فى النتائج العامة للمقابلة، ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها، ومدى فهمه لدوافع السلوك، ومبلغ وعيه وإدراكه لمختلف العوامل فى الموقف المحيط به، والتى تدفع المبحوث فى بعض الأحيان إلى الوقوف موقفا سلبيا من الباحث أو إعطاء بيانات محرفة لاتتسم بالثبات والصدق .

والمقابلة من يحتاج إلى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول إلى الميدان والاحتكاك بجمهور البحث، والقدرة على النفاذ إلى دوافع السلوك، ومكونات الشخصية ، وأساليب الاتصال والتأثير. لذلك فإن المقابلات التي يعقدها الباحث مع أعضاء المجتمع، من شأنها أن تجعله قادرا على إدراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك والعلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة(٩)

ويستطيع الباحث أن يختار موضوعات المقابلة بالاعتماد على

---

(٩) محمد عل يمحمد، مرجع سابق ، ص٢٦٤ .

بعض المؤلفات المتاحة لدى الأنثروبولوجين، والتى تقدم لهم دليلا عاما للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعا هى «موجز المواد الثقافية» ميردوك Merdouk ١٩٦٠، والدليل الذى أصدره المعهد الملكى للأنثروبولوجيا فى بريطانيا عام ١٩٥١ بعنوان : ملاحظات واستفهامات فى الانثروبولوجيا Botes and queries on Anthropology ويحتوى الدليل الأول على ثمانين فئة عامة تنقسم إلى ٦٣٣ موضوعا، يضم كل منها ما بين ٥- ٢٠ موضوعا متخصصا للبحث، هذا فضلا عن أن الباحث يستطيع أن يستعين أيضا بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل عملية تنشئة الأطفال اجتماعيا Socialization، وهى تستخدم جميعا كأساس للمقابلات.

*** أما عن الأدوات المستخدمة فى البحث الأنثروبولوجى** ، فهى متعددة تبدأ بالتسجيل اليومى الكتابى فى جمع المادة الأثنوجرافية (المادة الوصفية Ethnographic Data) من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من أدوات جمع المادة، سواء كانت أدوات تستخدم للتسجيل الصوتى (كاسيت) أو تصوير فوتوغرافى للحياة اليومية فى المجتمع، حتى أيضا التصوير المرئى، أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا المرئية .

*** أما دراسة الحالة** ، فهى تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواقف الاجتماعية ، وطريقة للتعمق الكيفى فى فهم الظواهر، والحالة التي يدرسها الباحث قد تكون شخصا أو جماعة مثل الأسرة أو مجتمع

محلى، والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلى لكافة جوانب الحالة المراد دراستها. ومن ثم يحاول الباحث أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة، وبخاصة تلك المعلومات التى تتصل بتاريخ حياة الحالة وتطورها، ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالى :

١- إنها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة المدروسة.

٢- إنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات .

٣- إنها طريقة تهتم بالموقف الكلى وبمختلف العوامل المؤثرة فيه والعمليات التى يشهدها .

٤- إنها طريقة تتبعية، أي أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالدراسة التاريخية .

٥- إنها منهج ديناميكى لايقتصر على بحث الحالة الراهنة .

٦- إنها منهج يسعى إلى تكامل المعرفة، لأنه يعتمد على أكثر من أداة للحصول على المعلومات .

ثالثا : بين المنهج والنظرية فى البحث الحقلى الأنثروبولجى :

تواجه البحوث الاجتماعية - عموما - معضلة منهجية فريدة، ألا وهى أن ظروف البحث فى ميادين هذه العلوم تشكل متغيرا مركبا شديدا يؤثر تأثيرا مباشرا فيما تخلص إليه البحوث من نتائج، ومن ثم يستخدم مصطلح البحث الحقلى Field Research لكى يعنى فى الحقيقة موقفا منهجيا محددا وصريحا هذا المصطلح أساسا

بأداة بحثية معينة هى أداة الملاحظة بالمشاركة Participant observation التى تستخدم استخداما رئيسيا فى البحوث الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، إذ استطاع الانثروبولوجيون باستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات، دون أن يحظى هذا التراث - للأسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيرى له، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الأنثروبولوجى فى الدراسة الحقلية، إذ تقتضى من الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن فى المجتمع محل الدراسة، يستطيع معها أن يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة- التى تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية، ويعتقد الانثروبولوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع أكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية وصفا تفصيليا دقيقا، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريرا متكاملا ومفصلا عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التى يدرسها .

* ومن هنا لابد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية فى البحث الأنثروبولوجى الحقلى، إن المشكلات الخاصة بالملاحظة والتفسير والتسجيل ملاءمة البيانات للنظرية تظهر بوضوح فى البحث الحقلى لأن الملاحظ جزء من الميدان الذى يعمل فيه .

والمشكلة المنهجية الرئيسية فى هذا الصدد نتيجة للفروق بين الواقع الطبيعى، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعى كما

يصفه العالم الاجتماعى ولقد حدد ألفرد شوتز A. Shutz هذا الفارق فى هذه الفقرة التالية :

(إن هذه الأمور ترجع إلى الحقيقة التى مؤداها أن هناك فارقا جوهريا فى بناء الأفكار والمفاهيم التى يكونها المتخصصون فى العلوم الاجتماعية وتلك التي يكونها المتخصصون فى العلوم الطبيعية .

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعى أن يحدد فى ضوء القواعد الاجرائية للعلم الذى يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضا الوقائع، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو لبحثه العلمى الذى يقوم به .

ولايتضمن العالم الطبيعى كما يستكشفه عالم الطبيعة أية معانى خاصة أكثر من الجزيئيات، أو الذرات، أو الالكترونات كما توجد بالفعل. أما مجال الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعى ، أي الواقع الاجتماعى، فإن له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الإنسانية التى تعيش، وتفكر، وتتفاعل فيه. ولقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هذا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعي أن يصوغ مفاهيمه وأفكاره، التي سوف يدرس بها الواقع فى ضوء التفسيرات التي طورها الناس خلال حياتهم اليومية وبدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وأفكارهم، أي منعزلة عن الموضوع الذى يدرسه أصلا، وإن كان الملاحظ ليس جزءا من المجال السلوكى الذى يدرسه. وعموما فإن الملاحظ كجزء

من مجال السلوك الذى يدرسه يصطحب معه مجموعة من المعانى والأفكار الملائمة التى تمكنه من الدخول إلى البيئة التى يدرسها ويلاحظها، عند هذه النقطة تواجهه بعض المشكلات . نذكر منها ما يلى :

١- إن عليه أن يفسر سلوك الأشخاص الذين يلاحظهم وفقا للمعانى التى تسود فى حياتهم اليومية .

٢- إن عليه أن يكون تصورا نظريا يأخذ فى اعتباره قيم واتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد صلات شخصية متبادلة مع الأشخاص والجماعات التى يدرسها.

٣- إنه ان يستطيع أن يكون علاقة اجتماعية حميمة فى الواقع الاجتماعى دون أن يتجاهل ولو جزئيا اتجاهه العلمى .

والواقع أن الاعتبارات السابقة تطرح أمامنا مشكلة رئيسية وهى كيف نثق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقلى فى بحثه من الناحية العلمية وإلى أى مدى نستطيع أن نقيم على أساسها نظريات تفسيرية ؟

والمشاركة المتعمقة تقلل درجة تقنين المقابلة، لكن المشاركة تقدم لنا نظرة أكثر ثراء للعمليات الاجتماعية، وبدون استخدام بعض أنواع الأسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة محددة جدا بالنسبة لاختبار صحة الفروض .

إن الاستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة المشاركة فى البحث الحقلى تميل إلى تسجيل ما يقع من حوادث، ذلك باستثناء عدد قليل

من الدراسات التى تستعين بهذه الطريقة فى التحقق من صحة الفروض، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والأنثروبولوجيا حول تنشئة الأطفال وأساليبهم فى الثقافات المختلفة(١٠) .

لكن ستظل المشكلة الرئيسية هى عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث – على الأقل– فى توضيح افتراضاته النظرية مبدئيا، وإنما تنحصر مهمة هذه الدراسات فى الغالب فى إضافة العديد من الملاحظات الوصفية فى ميدان العلوم الاجتماعية .

* لذلك فعلى الباحث أن يحدد الأسس التى ترتكز عليها استنتاجاته، والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١– على الباحث أن يصوغ بوضوح ما يسعى إلى تحقيقه فى بحثه، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة، ويختبر صحة الفروض .

٢– المعلومات التى يمكن للباحث الحصول عليها فى البحث الحقلى، يتعين عليه استكمالها مباشرة، وبخاصة الدراسات الخاصة بالتراث، والتى يحصل عليها من دراسته الميدانية .

٣– يجب على الباحث على أن يحدد الإجراءات التى تناسب أهداف بحثه، مثل صياغة بعض أسئلة المبحوثين، وتحديد نوعية الصلات التى يتعين عقدها مع مجتمع البحث .

---

(10) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: Acomparison oranization , 10, No.3, 1959, pp. 28-32 .

هذه كلها تعد صورة لبعض التوجيهات التي يجب أن يسترشد بها الباحث الحقلي في ميدان الأنثروبولوجيا، لكن الواقع الذي يحدث فعلا في هذه البحوث يمكن إنجازه في القضايا الآتية :

١- عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث، وحتى عن النتائج التي سيصل إليها، ومعنى ذلك أن يتجه نحو البحث الحقلي وفي ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية.

٢- كثير من الباحثين يتجهون للميدان ولديهم أفكار عن نتائج البحوث السابقة، وقد يستخدمون هذه الأفكار في إساءة فهم المعلومات التي يحصلون عليها .

٣- يخلو - أحيانا - تقرير البحث من التصور الزمني الذي يعني ضرورة تحديد المراحل التي مرت بها الدراسة الحقلية، وأثر كل مرحلة منها في تعديل أو تطور أهداف البحث وما خلص إليه من نتائج .

٤- الاتجاه العام في الدراسات الحقلية، هو إبراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية، أكثر من الاهتمام باستخدام هذه المعلومات في تطوير البناء النظري والأسس المنهجية .

أهم مراجع الدراسة

اولا المراجع العربية

١- أحمد أبو زيد، ١٩٧٤، «البناء الاجتماعي - ج١ المفهومات» الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية.

٢- احمد أبو زيد، ١٩٥٦ «الطريقة الأنثروبولوجية في دراسة المجتمع» ، حوليات كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، المجلد العاشر.

٣- محمد على محمد ، ١٩٨٣، «علم الاجتماع والمنهج العلمي: دراسة في طرق وأساليب البحث» دار المعرفة الجامعية الاسكندرية.

٤- محمد محمود الجوهري، ١٩٨٥، «الأنثروبولوجيا: أسس نظرية» ، دار المعرفة ، الاسكندرية.

ثانيا المراجع الأجنبية :

(1) Becker & Geer,B. "Participant observation and Interviewing: Acomparison organization, 10. No. 3 1957 .

(2) Malinowiski, B., 1922, Argonouts of the western pacific london, Rouledge & kegn paul,

(3) Nadel, 1958, "Foundations of social Anthropolgy". Glencoe, the fress .

(4) Warwick , D., & samuel osherson, 1973, "Comparative Research Methods" N.J. Prentice Hall .

مناهج البحث فى علم النفس الحديث

(رؤية نقدية)

د. عبد الرحمن العيسوى(*)

(*) أستاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية

تتوقف نتائج البحوث العلمية ومدى ما يتوفر فيها من الدقة والموضوعية وما تتسم به من التقدم والتطور على المنهج الذى يستخدمه العالم فى الكشف عن الحقيقة وفى وصف المظاهرة التى يقوم على دراستها وفى عرض المعطيات أو المعلومات التى يتوصل إليها. فكلما زاد المنهج دقة وصوابا وكلما كان أكثر ملائمة للظاهرة المدروسة كانت المعطيات أكثر دقة وسلامة بل وأكثر قابلية التطبيق ومن ثم استخدام العلم وتقنياته فى تطوير المجتمع والنهوض به وهو الأمر الذى يمثل الهدف الأسمى أمام علمائنا فى الوقت الحاضر. ولاشك أن ما أحرزه العلم من تقدم يرجع إلى ما حدث من تطور فى مناهج البحث وأدواته وعلى ذلك فإن المنهج لايقل أهمية ولاقدرا من النظرية أو القانون فى المجال العلمي، وجدير بالملاحظة أن ما أحرزه علم النفس الحديث من تقدم إنما يرجع إلى انتهاجه المنهج العلمى وخاصة فى عمليات التشخيص وتطبيق تقنيات القياس النفسى والتربوى واستخدام منهج الملاحظة بأنواعها.

تطور علم النفس:

لقد تطور الفكر السيكلوجى حيث تحرر من سيطرة الخرافة والشعوذة والدجل والأوهام. فلقد أتى حين من الدهر كانت الأمراض العقلية والنفسية التى تصيب الإنسان تنسب إلى مس من الجن والشياطين أو الأرواح الشريرة التي كان يعتقد أنها تلبس جسد الإنسان. وكان الإنسان يعتقد فى القديم أن ما يصيبه من الأذى يرجع إلى غضب الآلهة أو إلى سخط الطبيعة وثورتها عليه. ولقد

تحـــول الفكر الســـيكلوجي من ذلك إلى الفكر الفلســـفي وظلت الموضوعات النفسية تدرس في إطار الفلسفة التي كانت تضم جميع العلوم ومن ثم كـان يطلق عليها «أم العلوم» . كـانت الموضـوعـات والظواهر النفسية تدرس بالمنهج الفلسفي ومؤداه التأمل والنظر ثم تحول الفكر السيكلوجي إلى المنهج العلمي الموضوعي ولذلك استعار علم النفس من العلوم الطبيعية المناهج التي تستـخدمهـا وقوامـها الملاحظة والتجربة والموضـوعية. واسـتـخـدم علم النفس الرياضـة أو الاحصاء لغة في وصف معطياته وفي استـخلاص النتائج والحقائق والقوانين والنظريات. ومن هنا أقيمت معامل علم النفس ومختبراته وتم وضع العديد من الاختبارات والمقاييس وتم تصميم مئات الأجهزة والأدوات التي تستخدم في قياس قوى الإنسان وأمراضه قياسا كميا رقميا .

لقد استمد علم النفس الحديث خاصية العلم من انتهاجه المنهج العلمي ولذلك أصبح علـم النفس الحـديث يقف في مـصـاف العلوم الطبيـعية الأخرى كعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وعلم الحـيـاة. وإن كنا لاننكر أن الظواهر التي يتـصـدى علم النفس لدراستـها أكثر صـعوبة وأكثرغمـوضـا وأكثر تعقيدا وأكثر تأثرا بالعوامل الذاتية سـواء باعتبارهـا نابعة من الإنسان الذي تتـولى دراسته فـهي خبرة ذاتية شخصية أو بحكم تأثرها بالعوامل الذاتية لدى من يقوم بدراستها . بل إنها أكثر صـعوبة لأنها، في كثير من الأحيان، عوامل عاطفة الإنسان واتجاهاته وميوله ومشـاعره وآلامه

الداخلية، ولذلك كان الجدل يثار حول إمكانية القياس الكمى لأمر معنوى. ولقد تغلب علم النفس على هذه المعضلة بأن ترك مفاهيمه وتصوراته المعنوية أوالمجردة تركها ودرس آثارها أو نتائجها أوعلاماتها كما تظهر فى «سلوك» الإنسان وبذلك نجح علم النفس فى دراسة ظواهر أومفاهيم مجردة مثل الذكاء أو التعلم أو الإدراك والقدرات الدالة على ذلك ، درسها بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق دراسة السلوك الذى يدل عليها والذى يفترض أن القدرة تكمن وراء هذا السلوك، ومن هنا كان القول بأن الذكاء مثلا «مفهوم افتراضى» بمعنى أنه لايوجد بصورة مشخصة ولايخضع للملاحظة أو التجريب أو القياس باعتباره جوهرا مجردا ومعنويا وإنما هو مفهوم نحن الذين نفترض وجوده افتراضا وذلك من ملاحظة مجموعة من مظاهر السلوك «الذكى» أو من ملاحظة عينة ممثلة للسلوك الذكى . ومن هنا تخلص علماء النفس من الصعوبة التى كانت تواجههم ازاء تعريف الذكاء أو تحديد مفهومه تعريفا جامعا مانعا وإنما اكتفوا بتعريفه «تعريفا اجرائيا» فحواه أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء ومن التأمل فى فحوى هذه الاختبارات والتعرف على مضمونها نجدها تتضمن عينات من القدرة على التفكير والاستدلال والاستنباط والنقد والحكم والمقارنة والإدراك والتصور والتخييل والمقارنة والتحليل والتركيب والتعلم والتذكر وحل المشكلات والتكيف للمواقف الجديدة وإقامة علاقات اجتماعية إيجابية مع الغير والقدرة على الخلق والإبداع والابتكار .

تنوع طرق البحث المستخدمة فى علم النفس الحديث :

على الرغم من أن علم النفس الحديث قد انتهج منهج العلوم الطبيعية فى دراسة الظواهر النفسية كالقدرات أو السمات أو الاستعدادات أو الأمراض، إلا أنه لايوجد منهج واحد يستخدمه جميع علماء النفس وإنما هناك مناهج متعددة أو مداخل مختلفة فى دراسة السلوك الإنسانى، وما يزال الباحث السيكلوجى يتصدى لدراسة ظواهره وهو متأثر بالخلفية العلمية أو التراث العلمى الذى يؤمن به كالاتجاه التحليلى أو السلوكى أوالاكلينيكى أو الطبى. وهناك منهج يؤيده كاتب هذه السطور ويدعو إليه وهو استخدام أكثر من منهج فى دراسة الظاهرة والنظر إليها من مناظير مختلفة أو من خلفيات متباينة. ومثل هذا المنهج يقدم لنا صورة أكثر تكاملا وشمولا للظاهرة المدروسة. فالمنهج الكمي وحده يعتمد على أرقام، والأرقام حقائق جامدة آلية صماء لابد للباحث السيكلوجى من استنطاقها ولابد من النظر إليها للتعرف على مدلولها وآثارها وتطبيقاتها ومعناها ووظيفتها النفسية والتربوية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، أي لابد من النظ إليها وفقا لمنهج التحليل النفسى بما يتضمنه من العمق والغموض فى أعماق النفس البشرية وسبر أغوارها وارتياد مجاهلها والتعرف على مكنونات النفس الإنسانية وما تحتويه من اللاشعور ومن الآمال والآلام والذكريات المنسية أو المكبوتة أو المترسبة فى أعماق اللاشعور والتعرف على صراعاتها

وأزمـاتهـا وعـقـدهـا. النظر إلى كل هذه القـوى الفـاعلة فى الذات الإنسانية نظرة تكاملية تأخذ بعين الاعتبار ما تتسم به العلاقة بين قوى الذات الشعورية واللاشعورية وسمات الشخصية ومقوماتها وما يقوم بينها من «ديناميكية» بمعنى علاقة «التفاعل» القائمة بين عناصر الشخصية فيما بينها من ناحية وبين الشخصية الإنسانية باعتبارها كلا متكاملا متفاعلا وبين عناصر البيئة الخارجية المادية والاجتماعية. وتزداد الصورة وضوحا اذا ارتد الباحث إلى الوراء مهتديا بمبادىء المنهج التاريخى فدرس تاريخ الحالة وتعرف على ظروف الفرد منذ ميلاده حتى وقت اجراء الدراسة أو المعالجة، بل يفضل أن يرتد إلى ما هو أعمق من ذلك فيرتد إلى لحظة الاخصاب وظروف الحمل والانجاب ويدرس ما تعرضت له آلام الحامل من المؤثرات التى قد تترك بصماتها على شخصية الفرد .

فى ضوء ذلك نقول إن هناك عددا من المناهج النوعية التي تستخدم فى الحقل السيكلوجى سواء فى دراسة الظواهر أو فى الممارسة اليومية للاخصائي النفسى، من ذلك منهج الاستبطان أو التأمل الباطنى أو منهج وصف الذات، ثم هناك منهج الاسقاط والذى يعتمد على عملية الإسقاط وهى عملية عقلية لا شعورية يسقط الإنسان فيها مشاعره هو واتجاهاته وميوله على غيره من الناس والأحداث والأشياء، ثم هناك المنهج الوصفى ويهتم بوصف الظاهرة النفسية، والمنهج التاريخى ويهتم بدراسة تاريخ الإنسان أو تاريخ المرض وهناك منهج التحليل النفسى والذى يستهدف الكشف عن

محتويات اللاشعور، ثم هناك المنهج الاكلينيكى ويتضمن استخدام الخبرة المهنية العامة في تشخيص الأمراض ووصفها، وهناك المنهج العلمى أو الموضوعى أو التجريبى، ومن التقنيات المتسخدمة فيعلم النفس، وهى كثيرة أيضا، التجربة والملاحظة والمقابلة الشخصية والقياس. ويستخدم القياس فى المكان المناسب أي ذلك الذى يتفق مع ما لديه من قدرات واستعدادات وميول واتجاهات ومعارف وخبرات ومهارات وسمات شخصية. كما يستخدم القياس في المجال المهنى أو مجالات العمل والعمال أو مجالات التوظف بغية وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب كمايستخدم القياس فى المجاالعسكرى وف يمجالات قياس الرأى العام وفى المجال الطبى أو الاكلينيكى لعمل التشخيص للحالة المعروضة بمعنى معرفة كم وكيف المرض أو الاضطراب. ويستخدم القياس فى مجال البحوث العلمية للتحقق من صدق الفروض أو بطلانها كالتعرف على ما هو روائى وماهو مكتسب، والتعرف على ما قد يوجد بين الأفراد أو الأجناس أو الأنواع من فروق .

ومن الأمور الجديرة بالتمييز ما يعرف فى الدراسات النفسية «بالمنهج الطولى» و«المنهج العرضى أو المستعرض» فى دراسة ظواهر نفسية مثل النمو. فما الذى نقصده بالمنهج المتسعرض؟

إذا أراد باحث أن يتعرف على ما يحدث من تطور فى اتجاهات الراهقين نحو المرأة مثلا مقارنة باتجاهات الشباب نحوها فى هذه الحالة، ووفقا للمنهج المستعرض ، فإنه يأتى بمجموعات من الشباب

والمراهقين من أرباب أعمار مختلفة ويقيس اتجاهاتهم جميعا في وقت واحد، فإذا وجد فروقا بين اتجاهات الشباب والمراهقين، أرجع ذلك إلى عامل العمر وما يصاحبه من النضج. ولكن يعاب على هذه الطريقة أن هذا الفرق لايرجع إلى عامل النضج في ذاته، فعندما نقارن الآن بين اتجاهات طفل في سن العاشرة واتجاهات شاب في سن العشرين، فإننا ننسى أن الشاب قد عاش لمدة عشر سنوات في ظروف ثقافية وحضارية واجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة عن تلك التي عاشها طفل العاشرة، ولذلك قد يرجع الفرق الملاحظ إلى الظروف الثقافية وليس إلى عامل العمر أو السن في ذاته على كل حال يمتاز المنهج المستعرض بالسرعة وقلة التكلفة وهو اقتصادى في الجهد والوقت والمال وفيه لانفقد أيا من أفراد عينات البحث .

أما المنهج الثاني وهو ما يعرف باسم «المنهج الطولى» أو المنهج التتبعي، وفيه يتتبع الباحث نفس الفرد أو الأفراد أو الأشخاص هم بعينهم يتتبعهم عبر سوات عمرهم أو مراحل نموهم، فيدرس مثل الذكاء أوالعبقرية عند مجموعة من الأطفال، ويظل يعاود قياس ذكائهم وهم في سن الخامسة فالعاشرة وسن الخمسة عشر فالعشرين حتى يصلوا مثلا إلى سن الستين، ليتعرف على ما قد يطرأ على ذكائهم أو نبوغهم أو تفوقهم عبر مراحل العمر المختلفة ولكن ما الذى يعيب هذا المنهج؟

يعيب هذا المنهج فقدان بعض أفراد العينة بالموت أو بالهجرة أو برفض اجراء التجربة عليهم كذلك قد يموت الباحث دون أن يستكمل

بحثه. ويستغرق هذا المنهج وقتا وجهدا كبيرين وبالتالى تهبط تكاليفه.

طرق اختيار العينات في البحوث النفسية :

علم النفس، كغيره من العلوم الطبيعية، يعتمد على العموميات وليس على الحالات الفردية، ولذلك يعتد بالدراسة التي جرى إلى شخص واحد، وإنما لابد وأن يجرى الباحث السيكلوجى تجاربه أو قياساته على مجموعة كبيرة نسبيا من الأفراد وذلك حتى يمكن الاطمئنان إلى تعميم ما يحصل عليه من نتائج. ويشترط فى العينة الصالحة في البحث الجيد أن تكون مختارة اختيارا عشوائيا أى دون تحيز الباحث فى اختيار أفرادها من بين أبناء مجتمع معين. كأن يأخذ الباحث أفراد عينته من أبناء مدرسة واحدة أو من حى واحد أو ممن ترد اسماؤهم فى دليل التليفونات، ذلك لأنه ليس من الضرورى أن يتضمن هذا الدليل جميع أبناء المجتمع، ولذلك يلجأ الباحث إلى الاختيار العشوائى لأخذ عينة من بين أبناء مجتمعه الأصلى، وتعنى العشوائية من بين ما تعنى ألا يتعمد الباحث اهتيار أفراد بعينهم وترك سواهم كما تعنى أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع الأصلى فرصة متساوية فى أن يصبح من بين أفراد العينة المختارة للدراسة ومن أساليب تحقيق العشوائية أن يضع الباحث اسماء جميع أفراد أو كل مائة فرد حسب حجم العينة المسموح به فى الدراسة وحسب الإمكانات المتوفرة للباحث . ويشترط فى العينة كذلك أن تكون ممثلة تمثيلا جيدا لمجتمعها الأصلى وعلى ذلك تتضمن عينة البحث أفرادا

من الكبار والصغار، من الذكور والإناث، من المتعلمين وغيرهم، من أرباب المستويات الاقتصادية العليا والدنيا، من الأحياء الراقية والمتدنية وهكذا .

وفيما يلى نسوق عرضا نقديا لأهم مناهج البحث عن النفس :

أ- الاستبطان

كان علماء النفس قديما يتبعون منهج التأمل الذاتى أو التأمل الباطنى أوالاستبطان Introspection ويقصد بالاستبطان تأمل الحالات الشعورية الداخلية التى يشعر بها الفرد، وتتراوح عملية الاستبطان بين التأمل البسيط أو الوصف البسيط لما نشعر به فى حياتنا اليومية، كما يحدث عندما نصف للطبيب ما نشعر به من ألم، وبين التفكير العميق فى أحوال الفرد الذاتية ومشاعره الداخلية وتحليلها ومعرفة أسبابها ونتائجها. وواضح أن هذا المنهج يعتريه النقص من جوانب متعددة نذكر منها ما يلى[1] :

١- فى أثناء عملية الاستبطان أو التأمل الداخلى، ينقسم الفرد إلى مُلاحِظ، ومُلاحَظ فهو نفسه الذى يقوم بملاحظة نفسه وتسجيل ما يشعر به، وهذا يؤدى إلي تغيير الحالة النفسية التى يريد تأويلها وتحليلها. فعندما ينصرف الإنسان لتأمل حالة الغضب التى يشعر بها مثلا، فإن ذلك يخفف من حدة انفعال الغضب عنده فملاحظة الحالة الشعورية ومحاولة وصفها وتحليلها لايمكن أن تحدث بدقة فى

---

(١) عبد الرحمن العيسوى، دراسات سيكلولوجية دار المعارف ١٩٨١ ص١٧.

أثناء الحالة نفسها .

٢- لاشك أن الحالات النفسية الشعورية معقدة من ناحية ومن ناحية أخرى سريعة التغير والزوال، وعلى ذلك فلا يمكن ملاحظتها ملاحظة ذاتية أووصفها وصفا دقيقا .

٣- أن هذا المنهج يقوم على أساس الملاحظة الذاتية أي ملاحظة الفرد لذاته فقط، وعلى ذلك فلا يمكن أن يشترك معه غيره ومن ثم فلا تصلح هذه الطريقة للبحث العلمى الذى يقوم على أساس الموضوعية والعمومية وعلى ذلك فلايمكن أن يتحقق باحث آخر من صدق الظواهر النفسية التى يمر بها الفرد فما يمدنا به الاستبطان من معلومات، حتى أن كانت صادقة، فإنها لاتصرف إلا على صاحبها فقط وليس من الضرورى أن تكون عامة ومشتركة بين جميع الناس، والعلم الحديث يقوم على أساس اكتشاف القوانين العامة التى تفسر السلوك عند كافة الناس.

٤- لما كان هذا المنهج يقوم أساس تحليل الفرد لذاته، ووصفها فإنه يتأثر بميول الفرد واتجاهاته واهدافه ونزواته الشخصية وتعصباته وتحيزاته، ومن المعروف أن - هذه الميول الشخصية تؤثر حتى فى إدراكنا للعالم الخارجى. أما تأثيرها على وصف الإنسان لنفسه فإنه أكثر عمقا لأن الإنسان دائما يتحيز لنفسه ولا يوجه اللوم إلى نفسه بل أنه يخفى على نفسه المشاعر والميول التي تعافها نفسه ولايحب أن يصارح نفسه نفسه بالأمور التي يخجل منها أو التى تظهره بمظهر غير خلقى أو غير اجتماعى ويسعى إلى إظهار نفسه

في صورة براقة مشرقة .

٥- إن منهج الاستبطان الذى يعتمد على وصف الفرد لذاته لايصلح في دراسة الأطفال الصغار أوالحيوانات أو الصم والبكم أو الأجانب الذين لايستطيعون التعبير اللغوى عن مشاعرهم. ورغم وجود نواحي الضعف هذه في منهج الاستبطان، إلا أنه يفيد في دراسة كثير من الحالات، حتى في علم النفس التجيريبى، فالباحث يسأل الشخص الذى يجرى عليه التجربة لكى يصف له ما يشعر به أو ما يراه أو ما يسمعه، كذلك فإن الاختبارات التي يستخدمها الباحث لقياس سمات الشخصية تعتمد على ما يعطيه الفرد من معلومات عن نفسه عن طريق الاستبطان، فقد يسأل الباحث الفرد: هل تشعر بالخجل عندما يكون عليك أن تلتقى بأناس لأول مرة؟ وهل تفكر في المستقبل كثيرا؟ هل تهتم كثيرا بآراء الآخرين فيك؟ هل يزعجك نقد الناس لك؟ كذلك فإن الاستبطان ما زال هو المنهج الممكن الوحيد لدراسة كثيرمن الظواهرالنفسية كالشعور والأحلام وغير ذلك من الخبرات الشعورية الذاتية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الاعتماد على السلوك الظاهرى فقط قد يكون مضللا ومخالفا للحقيقة التي يشعر بها الفرد، فالسلوك الذى يأتيه الفرد ليس دليلا على وجود ميل حقيقى لدى الفرد نحو هذا السلوك. فإن العوامل الاجتماعية قد تضطر الفرد إلى إتيان لبعض مظاهر السلوك التي لاتتفق مع رغباته فقد يقدم لك صديقك لونا لاتحبه من الطعام على مائدته، وقد تضطر إلى تناوله تمشيا مع الموقف. كذلك قد يسلك

الفرد سلوكا يدل فى ظاهرة على الكرم بينما الدافع الحقيقى حسب الشهرة. ومهما يكن من قيمة المنهج الاستبطانى الذاتى، فإن علماء النفس فكروا فى مناهج أخرى أكثر دقة ولذلك لجأ البعض إلى استخدام ما يسمى بالمنهج الاسقاطى .

ب- المنهج الإسقاطى

يقصد بلفظ «الإسقاط» Projection فى علم النفس أن يسقط أو أن يفرغ الفرد ما يشعر به هو على غيره من الناس، وأن يترجم ويفسر سلوكهم بالرجوع إلى خبراته الذاتية هو، فيرى الناس من زاويته هو وعلى ذلك فالمنهج الإسقاطى يتلخص فى قيام الباحث بملاحظة سلوك الإنسان أو الحيوان ثم تفسير هذا السلوك على أساس الخبرة النفسية للباحث نفسه تلك التى سبق أن خبرها هو فى مثل هذا الموقف السلوكى وعلى ذلك فإذا رأيت شخصا يبكى استنتجت أنه حزين، وإذا رأيت شخصا يصول ويجول فى وسط الحجرة استنتجت أنه قلق وهكذا. ويعنى ذلك أننا نفترض أن أحوالنا النفسية تشابه الأحوال النفسية التى يخبرها الغير وذلك فى الظروف المتشابهة ومما يؤخذ على هذا المنهج القول بأنه يندر أن تتفق الظروف الجسمية والنفسية والعقلية لفرد ما مع فرد آخر، بحيث يمكن أن يسقط أحدهما مشاعره على الآخر وبحيث يصدق هذا الاسقاط. والواضح أن مثل هذا المنهج لايصلح فى دراسة الحيوانات والأطفال وأبناء المجتمعات البدائية، التي تبعد الشقة بيننا وبينهم من حيث التكوين الشخصى والنمط الحضارى هذا ولايخفى أن السوك

الظاهرى overt behaviour قد يكون مجرد تضليل وتمويه لما يشعر به الفرد حقيقة فمظاهر الكرم قد تكون لنيل المكاسب الشخصية أو لتغطية ميل شديد للشح والبخل، فالسلوك الخارجى الظاهرى ليس دليلا حقيقيا فى جميع الأحوال على الحقيقة الداخلية للفرد. تفاديا لهذه العيوب التى يعانى منها منهجا الاستبطان والاسقاط اتجه علم النفس الحديث نحو انتهاج مناهج العلوم الطبيعية الحديثة وسار على نفس الأسس العلمية والموضوعية التى تسير عليها هذه العلوم والتى وصلت بفضلها إلى نتائج باهرة .

ج- المنهج العلمى الموضوعى

يستهدف المنهج العلمى Scientific Method الموضوعى فى علم النفس دراسة الظواهر النفسية أو الظواهر السلوكية دون أن يسقط الباحث عليها حالاته الذاتية، فلا يتأثر بحثه بميوله واتجاهاته وأرائه وتعصباته أو تحيزاته بل يسجل الوقائع كما هى فى الواقع بعيدا عن ذاته. فعند دراسة تطور لعب الأطفال مثلا فإن الباحث ينسلخ بنفسه بعيدا عن الموقف، ويصف ويسجل كل ما يلاحظه وصفا دقيقا موضوعيا وكذلك الحال عندما يقوم الباحث بدراسة ظاهرة السلوك الإجرامى مثلا عند جماعة من الأفراد، فإنه لايصدرأحكاما خلقية نابعة عن رأيه الشخصى فى مثل هذا السلوك ولكنه يسجله ويحاول تفسيره بالاستناد إلى الحقائق التى حصل عليها. وجدير بالذكر أن تطبيق المنهج العلمى فى علم النفس ليس عملا ميسورا ذلك لأن طبيعة الموضوعات التى يدرسها علم النفس

تختلف اختلافا بينا عن طبيعة الموضوعات التى تدرسها العلوم الطبيعية، فالسلوك الذى يدرسه علم النفس يعد ظاهرة معقدة Complex phonomenon تتدخل فيها عوامل معقدة نفسية وعقلية وجسمية واجتماعية ومادية. ومن الصعوبة بمكان دراسة أثر أى من هذه العوامل مستقلا عن غيره من العوامل الأخرى، ذلك لأن عزل هذه العوامل يعتبر عملية بالغة الصعوبة ويكفى أن نتأمل أى عينة من سلوك فرد ما فى موقف ما لكى نتبين مدى تداخل العديد من العوامل المتشابكة، فإذا ما تصورنا طالبا يؤدى الامتحان فى مادة علم النفس مثلا فإننا نلمس العديد من العوامل التى تؤثر على أدائه ومستواه فى هذا الموقف ومنها ما يلى :

١- مستوى ذكائه.

٢- مقدار ما حصله من معلومات فى مادة علم النفس

٣- ميله نحو هذا العلم ومقدار اهتمامه به .

٤- ما يوجد لديه من دوافع ورغبات فى اجتياز هذا الامتحان .

٥- قدرته على التفكير فى حل المشكلات النفسية .

٦- حالته النفسية والمزاجية والجسمية أثناء أداء الامتحان .

٧- سنه ومستوى نضجه العام.

٨- الظروف المادية المحيطة به أثناء الامتحان من حرارة ورطوبة وضوضاء وتهوية وبرودة وإضاءة .

٩- ما يوجد فى الموقف من علاقات اجتماعية بينه وبين المحيطين به من زملاء ومشرفين فإذا أراد الباحث معرفة أثر أى من هذه

العوامل على أداءالطالب وجب عليه أن يعد تجربة بحيث يثبت بقية العوامل أو يضبطها Control ثم يدرس هذا العامل وحده ويترك الحرية لهذا العامل وحده لكى يتغير .

فإذا أردنا معرفة أثر الذكاء Intelligence مثلا فى القدرة على التحصيل فى مادة علم النفس، فإننا نأتى بمجموعتين من الطلاب احداهما تتمتع بمستوى عال من الذكاء والأخرى مستواها منخفض بشرط أن تتساويا فى العوامل الأخرى كالسن والجنس والبيئة الاجتماعية ونوع المدرسة وطرق التدريس والظروف الجسمية والصحية ومقدار ميولهم نحو هذا العلم .. ثم نكلف كلا من المجموعتين بتعلم قدر واحد من المواد النفسية وبعد فترة من الزمن نقيس تحصيل كل من المجموعتين، ونقارن بينهما فإذا حصلنا على أى فرق ذى دلالة إحصائية فلا بد إذن أن يكون مرجعه هو الفارق في مستوى الذكاء وجدير بالذكر أن المنهج العلمى فى مثل هذه التجارب يتطلب أن تجرى التجربة على عدد كبير من الأفراد وأن تتكرر أكثر من مرة حتى يمكن الثقة فيما تعطى من نتائج وأن تكون العينة ممثلة تمثيلا حقيقيا للمجتمع الأصلى وإلى جانب الصعوبة فى عزل العوامل المختلفة المحيطة بالسلوك والمسئولة عنه، فإن السلوك نفسه يختلف عن الموضوعات المادية المحسوسة التى تدرسها العلوم الطبيعية، فقياس الطول أو العرض يختلف عن قياس الشعور .

ولقد اتخذ علم النفس، إلى جانب المنهج التجريبى والموضوعى، اتخذ من علم الاحصاء statistics وسيلة مبتكرة لمعالجة ما يحصل

عليه من نتائج فأصبح يعرف المتوسطات الحسابية Means لمجموعات مختلفة من الأفراد فى القدرات التحصيلية والمعرفية وغيرها، وهكذا أصبح علم النفس يستخدم لغة الرياضة والاحصاء فى عرض البيانات واستخلاص النتائج كذلك أصبح لعلم النفس الحديث معامل مزودة بأجهزة لقياس حدة السمع والأبصار والإدراك ودقات القلب وسرعة التنفس وهكذا كذلك أصبح علم النفس يعتمد على المقاييس العقلية mental meusurie المختلفة والاختبارات الدقيقة التى تقيس الذكاء والقدرات والمهارات وسمات الشخصية المختلفة كالخجل والانطواء والعدوان والتعاون والطموح والقلق والخوف وغير ذلك وهناك نماذج حية من التجارب المعملية فى دراسة عملية التعلم. وعلى العموم يعتمد المنهج العلمى على دعامتين أساسيتين هما الملاحظة والتجربة Experiment and observation فيلاحظ الباحث الظاهرة ملاحظة دقيقة ويسجل ما يرى كما يصمم التجارب التى تساعده على ملاحظة السلوك فى مواقف مضبوطة تشبه المواقف الطبيعية، ويتضمن المنهج التجريبى اتباع الخطوات الآتية :

١- الملاحظة الدقيقة المقصودة حيث يلاحظ الباحث الظاهرة ويسجلها كما يلاحظ الباحث هبوط الامطار أو هبوب الرياح أو سلوك التلاميذ فى فناء المدرسة .

٢- تحديد المشكلة تحديدا دقيقا، ويتضمن ذلك وصفها وتعريفها، فقد يحدد الباحث المشكلة فى تأخر الطالب فى التحصيل فى مادة ما

أو انحراف جماعة من الصبية .

٣- جمع البيانات والأدلة والشواهد والمعلومات الخاصة بالمشكلة واجراء التجارب وغير ذلك من وسائل الحصول على المعلومات .

٤- وضع الفـــروض أو الحلول Hypotheses الممكنة لحل المشكلة على أن يكون وضع هذه الفروض قائما على أساس منطقى معقول كما ينبغى أن تكون محددة المعنى بحيث يكون إخضاعها للتجريب والقياس ممكنا .

٥- اختبار صحة الفروض أوالحلول أو التحقق من صحتها verificationوذلك عن طريق ما تمدنا به التجربة أو ما نحصل عليه من معلومات، فيتناول الباحث الفروض فرضا فرضا بالفحص، فإذا أيدت التجربة الفرض أصبح نظرية عامة أو قانونا مقبولا لتفسير وحل المشكلة، واذا اختلفت نتائج التجربة مع الفرض حذف الفرض أو عدل بحيث يتفق مع نتائج التجربة التى ينبغى أن تكون لها الكلمة الأخيرة فى هذه المرحلة بالذات ينبغى أن يتسم فكر الباحث بالمرونة وعدم التشبث أو التعصب لما يضع من فروض أولية بل يجب أن يكون مستعدا لحذف وتعديل وتغير جميع فروضه ووضع غيرها وجدير بالذكر أن المنهج العلمى لايقوم على التجريب وحده وإنما هو فى جوهره يعتمد على التفكير المنطقى السليم وعلى أن يستخدم التجريب كوسيلة للحصول على المعلومات الدقيقة(١) . على

(١) دكتور عبد الرحمن محمد عيسوى - دراسات سيكلوجية - من ص ١٧ إلى ص ٢٤ .

أن هذه المناهج لاتخلو من النقد.

د- المنهج الكيفي في الحقل السيكلوجي

لقد آثار الدكتور علي عبد المنعطي اعجابي لما قرره من أهمية المنهج الكيفي وعدم تقديس «المناهج الكمية» المتمثلة في الأرقام والأعداد والاحصاءات[1] . وأضم صوتي المتواضع إلى ما ذهب إليه د. علي عبد المعطي حين أشار إلى انطباق دعواه الفكرية والمنهجية هنا على البحوث والدراسات والممارسات المهنية السيكلوجية، ولكنني أبادر إلى القول بأن ذلك لايعني اطلاقا هجرة الأساليب الكمية المتمثلة في القياس والتجريب وتقدير الظواهر النفسية تقديرا كميا من خلال تطبيق الاختبارات والمقاييس،واستخدام الاجهزة المعملية والمقابلات الشخصية المضبوطة أو المقننة والمسلحة بالآلات من خلال الملاحظة العلمية، ولكنني اقصد أن الأرقام ليست خاتمة المطاف، وأنها ليست مقدسة في ذاتها بل إنها قد لاتكون معبرة في بعض الحالات ،عن جوهر الحقيقة وقد تكون مضللة ولاتصف الواقع الفعلي.

ولعل أبسط مثال عملي يؤكد ذلك هو تأثر قيم المتوسطات الحسابية التي يفرض فيها أنها تمثل المجموعة المأخوذة عنها، تتأثر هذه المتوسطات «بالقيم المتطرفة سابا وإيجابا» فإذا كان الدخل الشهري لمعظم أفراد مجموعة من الناس «مائة» جنيه مثلا وكان بينهم قلة بسيطة يتجاوز دخلها «المليون» جنيه، لأصبح المتوسط

---

(١) أنظر (ورقة العمل) في بداية الكتاب .

مرتفعا جدا بما يخالف الواقع ويخفيه عن عين الباحث، وبالمثل اذا كان لدينا مجموعة معظم أفرادها يتراوح متوسط دخلهم الشهرى حول ثلاثمائة جنيها وكان من بينهم نفر قليل جدا لايصل دخله إلى ٥٠ جنيها، لأدى ذلك إلى انخفاض قيمة المتوسط الحسابى بما يخالف الواقع، الأرقام إذن ليست مقدسة فى ذاتها ، وليس لها معنى محددا واحدا فى جميع الحالات، إنما هناك أمور نسبية تختص بكل حالة على حدة لابد إذن من استخدام المنهج الكمى، ولكن لابد وأن يسبقه أو يصاحبه أو يتبعه أن يعمل السيكولوجى أو الباحث فى مجال علم النفس فكره وحسه وأن يتأمل الأرقام ويعرف مدلولها ووظيفتها ومغزاها وفحواها واتجاهها وما ترمز إليه، وأن يقرأ ما بين السطور ولابد كذلك أن يعرف المصدر أو السبب الذى أدى لوجود فروق رقمية أوكمية بين جماعة من الناس وجماعة أخرى ولانقول أنه يعمل فكره بطريقة ذاتية صرفه وطليقة حرة وشخصية، بحيث يصبغ العمل العلمى بأهوائه وميوله وتحيزاته وتعصباته وشطحاته ورغباته الذاتية الصرفة ويغفل الطبيعة التى هى كتاب مفتوح أمام الباحث ويمكن فى داره على وصفها وهو لم يبرح مكانه، ولكننا نقول يعمل خبرته المهنية أو الاكلينيكية أو النفسية. يعمل بصيرته واستصباره السيكولوجى وفهمه وذوقه للحالة فى ضوء خبراته السابقة وفى ضوء مايحفل به التراث العلمى وفى ضوء ظروف وملابسات وتاريخ حياة الحالة وإذا كنا نؤمن بقول ادوارد ثورنديك عالم النفس السيكولوجى الامريكى « بأن كل ما يوجد، يوجد بمقدار، وما يوجد بمقدار يمكن قياسه» وتلك العبارة التى قالها فى الرد على مفكرى القياس فى الأمور المعنوية والذين كانوا يقصرونه على العلوم الطبيعية، إلا أننا

نقول إن هذه العبارة وإن كانت تبرز القياس الكمى والموضوعى، ولكنها لاتلغى إعمال فكر الباحث فيما يحصل عليه من معطيات كمية والنظر إليها فى ضوء المفاهيم الكيفية والنسبية، وفى ضوء الخبرة وخاصة الخبرة العلاجية .

وقد كان من نتائج طغيان النزعة الكمية فى البحوث النفسية أن تحولت ، على القليل نسبة من البحوث النفسية، إلى عمل آلى ميكانيكى «حرفى» يتمثل فى استجلاب كمية من المعلومات من العقول الالكترونية ثم تطبيق عدد من المقاييس بصورة آلية ثم دس ما يحصل عليه الباحث فى «فم» الكمبيوتر فيحصل على كميات هائلة من الأرقام والمعادلات التى لايعى معناها فى كثير من الأحيان، ولايحسن توظيفها ولاتفسيرها ولايعرف حتى كيف جاءت هذه المعطيات. وساعد ذلك فى بعض الاحيان على «فبركة» الأبحاث واصطناعها وتزييفها ووضع جداول وأرقام من عندية الباحث وهو جالس فى بيته دون أن يطالع الواقع الميدانى. وغاب بذلك الصدق العلمى والأمانة العلمية والحس السيكلوجى فى خضم كميات هائلة من الأرقام العمياء والصماء.. وهذا فيما يتعلق بالبحث السيكلوجى واذا انتقلنا إلى صورة الممارسة المهنية فى العلاج مثلا أو فى التشخيص لوجدنا أن هناك مساحة ضرورية لخبرة المعالج وبصيرته وفهمه واستيعابه للحالة المعروضة وتاريخ المرض والأسرة وما يزال علماء النفس والأطباء يعتمدون على المشاعر والعواطف والأحاسيس وغيرها من الأمور المعنوية والكيفية .

منهجية علم التفاوض الاجتماعى والسياسى

(رؤية إمبريقية)

د. حسن وجيه(*)

(*) كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر

إذا تحدثنا عن المنهجية فى ما أسميه بعلم التفاوض الاجتماعى والسياسى فلابد وأن نذكر أولا أن ظاهرة التفاوض قد نالت قدرا لا بأس به من التحليل من مناظير علوم اجتماعية عديدة وأهمها علم العلاقات الدولية وعلم الاجتماع السياسى وعلم الأجناس. ولكل من هذه العلوم أدواته ورؤيته المنهجية فى تحليل هذه الظاهرة المعقدة ولكن بتطور علم اللغويات وتشعبه وتداخله إلى حد الالتئام مع علوم اجتماعية أخرى ظهر إلى حيز الوجود العلمى علوم اللغويات الاجتماعية SOCIOLINGUISTICS واللغويات النفسية PSYCHOLINGUISTICS واللغويات العرقية ETHNO LINGUISTICS ولغويات الكومبيوتر/ الحاسوبية COMPUTATIONAL LINGUISTICS وكل هذه العلوم التمازجية / التكاملية الحديثة تعلن فى جوهرها عن مركزية اللغة ومركزية التحليل اللغوى الامبريقى فى السياقات الاجتماعية والنفسية والعرقية والحاسوبية. وإذا كنت أتحدث عن علم التفاوض الاجتماعى والسياسى من خلال رؤية من منظور مركزية علم اللغويات الحديث فلعلى اقدم رؤية تفصيلية لمشروع ومشروعية الالتئام بين العلوم الاجتماعية لتحليل ظاهرة التفاوض .ولعلى أرصد هنا الدوافع والحاجة إلى الالتئام بين علم اللغويات بفروعه التمازجية الحديثة والعلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية بوصفه أكثر العلوم اهتماما بدراسة ظاهرة التفاوض ليتشكل من خلال هذا الالتئام البداية نحو علم تمازجى حديث يمكن تسميته بعلم اللغويات

السياسية POLITICAL LINGUISTICS وهو ما اقترحه كاتب السطور في رسالته للحصول على درجة الدكتوراه في جامعة جورجتان (سنة ١٩٨٩) وليصب بدوره في تشكيل علم التفاوض الاجتماعي والسياسي وتنقسم هذه الدراسة إلى أربع أقسام :

يوضح القسم الأول وجود فجوة على خريطة البحث الامبريقي الحالية في علم العلاقات الدولية وأهمية وجوب ملء هذه الفجوة وارتباط ذلك الوثيق برؤية لفلسفة علم العلاقات الدولية. ويستعرض القسم الثاني بإيجاز البحث الامبريقي في علم اللغويات والتعريف برؤية الباحثين في علم اللغويات لقضية البحث الأمبريقي بصفة عامة وارتباطها بمراحل تطور علم اللغويات وترشيح آخر تطورات تلك النوعية من البحث لملء الفراغ المشار إليه في خريطة أبحاث علم العلاقات الدولية .

وبناء على ذلك يقدم القسم الثالث نموذجا لتحليل ديناميكيات مطارحات القدرة في المفاوضات السياسية الدولية مع التركيز على الأسئلة الخاصة بكيفية جمع البيانات (DATA) واجراءات تحليلها ووحدات التحليل الأساسية والحاجة إلى مثل هذا النموذج الذي يقدم أول محاولة للربط بين مفاهيم مدرسة تحليل المطارحات بعلم اللغويات من ناحية ومفاهيم القدرة في العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية من الناحية الأخرى ثم يقدم القسم الرابع الخاتمة ويحدد كذلك مجالات استخدام النموذج المقترح .

أولا: فجوات البحث الحالية فى علم العلاقات الدولية والمقصود بالمنهج اللغوى فى تحليل المطارحات السياسية طبقا لهذه الدراسة؟ ومدى الحاجة إليه على المستوى الامبريقى وارتباط ذلك بفلسفة العلم:

إننا إذا ما بحثنا فى تعريفات علم العلاقات الدولية لوجدنا أن من أهم الكلمات التى يتم تداولها فى معظم التعريفات الخاصة بهذا العلم ومفاهيمه الأساسية هى كلمات التفاعلات "Interactions" وأنماط التفاعلات "Patterns of Interactions" وعملية التفاعلات "Process of Interaction"، الخ (انظر على سبيل المثال) هولستى Holsti ١٩٨٨، آرون Aron ١٩٦٦، ودويتش Duetsch ١٩٧٨، فالعلاقات الدولية فى واقعها الحقيقى ماهى إلا سوى تفاعلات بين الدول على كافة المستويات.. واللغة فى هذا السياق هى وسيلة التفكير والتخطيط والتنفيذ المتعلق بتلك التفاعلات وسياقاتها المختلفة ومع ذلك فلقد كان دائما النظر إلى أمر اللغة على أنها أوتوماتيكية ولم يتطرق اليها البحث بالتعمق المطلوب الذى يواكب دورها المركزى والتعقيدات المصاحبة للأداء اللغوى فى سياق هذه التفاعلات الدولية وهذا يمثل فجوة بحثية على خريطة أبحاث كل من العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية حيث لايوجد سوى أعمال قليلة جدا من قبل علماء السياسة التى تناولت أمر علاقة اللغة بالممارسة السياسية ومن أمثلة هذه الأعمال كتاب مايكل شابيرو "Shapiro" **"اللغة والفهم السياسى"** ١٩٨١ وايدلمان Edelman "مجموعة كتبه السياسية

كمال المنوفي ١٩٧١، اللغة السياسية: الكلمات التي تنجح **والسياسات التي تفشل** ١٩٧٧ ومن أحدث أعماله في هذا الصدد : **العلاقة بين اللغة السياسية والسياسة الحقيقية** ١٩٨٥. إن هذه الأعمال والتي تعبر عن توجهات علماء السياسة في هذا الصدد نزعت في استعراضها وتطرقها لموضوع تحليل اللغة في السياق السياسي إلى الجانب التنظيري ولم تعالج هذا الموضوع امبريقيا.. كذلك ركزت هذه الدراسات على دور محدود للغة في السياق السياسي وعلى مناقشة الأمثلة اللغوية التي لم تتعد مستوى الكلمات والتعبيرات (Word & phrasal levels) وبالتالي يمكننا أن نصف معالجة علماء السياسة لهذا الموضوع بأنها معالجة استاتيكية

والجدير بالذكر في هذا السياق أيضا ما عرف بمدرسة تحليل الخطاب السياسي وأهم أعلام هذه المدرسة الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو ١٩٦٧ "Michael Facucoult" ورورتي ١٩٦٧ "Rorty" الذين يقترحون دراسة الأيديولوجية من خلال تحليل الخطاب السياسي. وفي العالم العربي نجد أن أهم الأعمال التي مثلت هذه المدرسة كتب الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري تحليل الخطاب العربي المعاصر (١٩٨٥) ، وتكون العقل العربي (١٩٨٤) وبنية العقل العربي (١٩٨٦) .

إلا أن هذه الدراسة هي الأخرى في واقعها مدرسة فلسفية تتخذ من علم الفلسفة منطلقها الأساسي للنظر إلى دور اللغة في سياق

النصوص السياسية وهى بعيدة كل البعد عن البحث الامبريقى، ولقد وصف السيد يسين كتابات الجابرى كأحد الممثلين لهذه المدرسة فى سياق تعرضه لها بالتحليل فى مقالته «بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية فى الوطن العربى – الخطاب والأصولية المنهجية والاستراتيجية، قائلا :

«إن الجابرى حين درس الخطاب العربى المعاصر قد ركز انتباهه على التناقضات بين الخطابات المختلفة ونادرا ما أشار إلى الممارسة وكان اهتمامه بمقياس عدم التناسق الداخلى أكثر من اهتمامه بتقويم التجربة المعيشة.. وأن الجدل بين الفكر والواقع والذى يعد أساسيا فى علم اجتماع المعرفة، يغيب كلية عن تحليلاته».

إن ما نستخلصه مما ذكرنا يقودنا إلى القول بأن أمر التحليل اللغوى فى السياق السياسى على مستوى العالم الغربى والعالم العربى، لايزال يكتنفه القصور الشديد، كذلك فإن التحليل اللغوى فى سياق التفاعلات الدولى والمستمد من البحث الامبريقى المستمد من دراسات ومفاهيم مدارس تحليل ديناميكيات أساليب التناول والتفاعلات طبقا لعلم اللغويات الحديث أمرا غير موجود ويمثل فجوة كبيرة وواضحة بجداول أبحاث العلاقات الدولية. إن أهمية الاستعانة بمثل هذه النوعية من التحليل تكمن فى معالجتها لأمر التفاعل الديناميكى داخل الثقافة الواحدة وعبر الثقافات مما يؤهل استخدامها فى تحليل جلسات المفاوضات والمواجهات الإعلامية من مناظرات وحملات دعاية أو حملات المعلومات والحملات المضادة إلى

غير ذلك من أمور إدارة الصراع ومحاولات حله أو تعقيده والتى تتسم بتركيبة ديناميكية معقدة.

إن أهمية وجوب استخدام المنهج اللغوى طبقا لهذه الدراسة لتحليل ديناميكيات التفاعلات يستمد شرعية خاصة من خلال آراء العديد من علماء السياسة والعلاقات الدولية من ذوى الحساسية الخاصة لمركزية اللغة فى سياق التحليل السياسى وكذلك من خلال ارتباط ذلك بأمور حيوية تتعلق بفلسفة العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية .

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى استخدام المنهج اللغوى الحديث فى تحليل المطارحات السياسية والذى سوف نعرض له تفصيلا فى القسمين الثانى والثالث من هذه الدراسة .

ثانيا: استعراض لتطورات توجهات البحث الامبريقى فى علم اللغويات :

لاشك أن هناك العديد من المسميات المتعلقة بمفاهيم البحث الامبريقى والتى تحتاج إلى توضيح حيث أن هذه المسميات فى كثير من الأحيان تكون موضع اختلاف بين الباحثين فى علوم اللغويات أو العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى أومحل خلاف بين الباحثين فى أحد هذه المجالات .

ولقد وجد الباحث أهمية توضيح المقصود بهذه المسميات من خلال محاولة وضعها فى الشكل الشمولى التالى والذى سوف يتم شرح مكوناته بقدر من التفصيل .

شكل رقم (1) مصطلحات المدارس الاساسية في علم اللغويات واستراتيجيات البحث الامبيريقي

مدارس علم اللغويات الاساسية		وحدات التحليل الاساسية	استراتيجيات البحث التي واكبت تطور الدراسات في علم اللغويات	استراتيجيات البحث الامبيريقي بصفة عامة
التاريخية Historicism البركيبية Structuralism	١٩٢٠ : ١٩٦٠	المورفيمات والفونيمات والكلمات وشبة الجمل والجمل Morphemes/ Phonemes/ Phrase & Sentence Levels	الاستقراء Induction (تطبيق نظرية معينة على واقع معين.)	الامبريقية الاستقرائية Inductive Empiricism
التوليدية Generativism	١٩٦٠ ١٩٧٠	التركيبات السموية Syntactic Structures	الاستدلال Deduction التحرك من وجهة نظرية الى وجهة نظرية اخرى .	الامبريقية الاستدلالية Deductive Empiricism Type I نظرية امبيريقية Type II نموذج نظري Type III نظرية مبنية على الحدس
البرجماتية Pragmaticism * دراسات النماذج التفاعلية Interactional Models (المنبعثة من الدراسات اللغوية) دراسات العلاقات المتبادلة Correlative Studies (المنقولة عن العلوم الطبيعية)	مابعد ١٩٧٠	discourse level مستوى الخطاب بأكمله	استراتيجية البحث الدائرى Abduction التحرك من محاولة استكشاف وفهم واقع اشكالي معين باستخدام نظرية أو نموذج ما أو الحدس دون الارتباط المسبق بأي من هذه الاراء ويكون ذلك من خلال الاستمرار في معالجة البيانات ثم ملاحظة الانماط المتسقة ثم التنظير ثم العودة لمزيد من البيانات لتحليلها للتأكد	الامبيريقية الأولية Raw Empiricism ويرتبط كل من هذه الاستراتيجيات اعادة بمحوري الاستكشاف والتحقق Discovery & Verification أو بهما معا كما سيلي تحصيل ذلك.

* بينما نعني بنظرية البراغماتية المنهجة في ... المكر السياسي ... قدر قيمة ... وهي في عموميتها اى منهج يركز على اى شيء يمكن عمله في العالم المتغير الطبيعي وليس على صعيد المناسبة، فان هذه النظرية طبقا لعلم اللغويات تعني بدراسة اللغة من منظور المستخدم لها والقيود التي يواجهها عند استخدام المعاملات التفاعل الاجتماعي وكذلك دراسة التأثير ... استخدامات اللغوية على الاخرين اثناء عملية الاتصال، وهناك العديد من الدراسات في علم اللغويات الاجتماعي والسيكولوجي ... Sociolinguistics & Psycholinguistics واتي تدخل في اطار هذه النظرية

وفيما يلى وصف لعناصر الشكل رقم (١) :

(أ) المدرسة التاريخية (Historicism):

وهذه المدرسة تمثل أولى مراحل دراسة ظاهرة اللغة بطريقة علمية ولقد مهدت هذه المدرسة لظهور المدرسة الثانية (التركيبية) Structuralism وكان من رواد المدرسة التاريخية عالم اللغويات أوتو جيسبرسن (otto Jaspersen) الذى ذكر فى كتابه المهم اللغة، طبيعتها، تطورها وأصلها (١٩٢٢) أن الصفة الرئيسية المميزة للغة كظاهرة هى الصفة التاريخية وهذه الصفة تمكن الباحث من تعقب تاريخ اللغات ليوضح أسباب وعوامل استمرارها، تطورها أو انقطاعها وموتها وكذلك تأثيراتها المتبادلة مع اللغات الأخرى، وهذا التوجه يتيح لنا تفسير لماذا اللغة هى كما هى عليه الآن ؟

(ب) المدرسة التركيبية (Sturcturalism):

جاءت هذه المدرسة للوجود كرد فعل للمدرسة التاريخية وكان من روادها بلومفيلد "Blomfield" ودى سوسير "de Sauddure" والذين ذهبوا إلى القول بأن وصف اللغة ليس من الضرورة أن يكون تاريخيا (Diachronic) (رأسيا) إنما يجب وأن يكون وصفها فى الأساس حالى (متزامن) sinchronic (عرضيا) وهنا يكون الوصف تركيبى structural قبل أن يكون سببى (causal) كما فى المدرسة التاريخية. وهذا التوجيه يتيح أيضا معالجة السؤال السابق وهو لماذا اللغة هى كما هى عليه الآن؟ فهذه المدرسة تعنى بالوصف التركيبى للغة ما وعلاقة ذلك بمفاهيم العالمية والخصوصية الثقافية

. (Universalism & Relativism)

هذا ولا تنكر هذ المدرسة صلاحية المدرسة التاريخية والتى مازالت قائمة إلى الآن فيما يعرف بفرع علم اللغويات التاريخية historical linguistics

(لمزيد من التفصيل أنظر ليونز Lyons، ١٩٨١).

ولقد تأثرت هذه المدرسة (التركيبية) بالمدرسة السلوكية (Behevioral School) وركزت فى معرض تطورها على التوجه الكمى الاستقرائى (quantitative inductive approach) الذى يبدأ بملاحظة وتحليل البيانات (DATA) ثم تكوين الافتراضية فالنظرية.. وكان ذلك بتحليل كم كبير من البيانات وعلى مستوى وحدات لغوية أساسية صغيرة مثل الفونيمات (phonemes) (أصغر وحدة صوتية).. والمورفيمات (Morphemes) (أصغر وحدة صرفية) كذلك شهد المجال أسلوبا يماثل الأساليب المنتهجة فى العلوم الطبيعية من خلال الدراسات الكمية الاحصائية وكتابة القوانين والمعادلات وما إلى ذلك. وشاعت فى ذلك الوقت دراسات مقارنات الأنظمة النحوية والصوتية للغات العالم المختلفة بغرض تعلم اللغات واتقانها فى أسرع وقت خاصة أثناء فترة الحرب العالمية الثانية. ولمزيد من التفصيل بخصوص دراسات التحليل المقارن (Contrastive analyses) أنظر لادو (Lado) (١٩٥٧، ١٩٦٤) - لقد كان مفهوم الباحثين فى علم اللغويات فى هذه الفترة يذهب إلى مساواة مفهوم الامبريقية (Empricism) بمفهوم العلم

(Science) من منطلق أن الحقائق المحسوسة والملموسة والمرئية من خلال تحليل البيانات هى فقط التى تمثل المنهج العلمى لدراسة اللغة إلى أن قدم توم تشومسكى فى مستهل الستينيات تفنيدا لهذه المدرسة (التركيبية) السائدة وقدم نظريته الخاصة والتى عرفت بالنظرية النحوية التوليدية التحويلية عام ١٩٦٥ (Transfoemational Generative Syntax).

(ج) المدرسة التوليدية (Generativisim or innatism)

لقد أحدثت نظرية تشومسكى فى عالم اللغويات تغييرا جذريا تجاه البحث الامبريقى فنظريته استدلالية (Deductive) بدلا من أن تكون استقرائية (Inductine) كسابقتها وهذا يفيد بأن الافتراضات والنظريات ليس من الشرط أن تكون نتيجة تحليل البيانات ولكن من خيال العالم ثم تأتى بعد ذلك اختبارات هذه الافتراضات والنظريات. فمدرسة تشومسكى تذهب إلى القول بأن البدء بتحليل كم كبير من البيانات كما فى الطريقة الاستقرائية ليس هو الأمر الذى يجعل المجال علميا أم لا (sine qua non) وبذلك فإنه فى الوقت الذى يدعونا فيه التوجه الامبريقى إلى أن آراءنا قد تكون خاطئة وليس علينا إلا نثبتها بالدليل.. أى نبدأ من منطلق التعبير الذى يقول «قد أكون مخطئا (I may be wrong) فإن المذهب العقلانى (أو مذهب المنطق المقبول mentalism or rationalism) الذى عبرت عنه مدرسة توم تشومسكى فهو يبدأ بالتعبير القائل «أنا أعرف الحقيقة» "I know the Truth" حيث

أنه لاتوجد فى بعض الظواهر اللغوية تلك النوعية التى يقال عنها «إنها ملموسة» وتتعلق بعمليات ذهنية معقدة تسبب عملية الانتاج اللغوى .

ولقد سادت مدرسة توم تشومسكى إلى أواخر الستينيات وأحدثت جدلا كبيرا ولكنها فى نفس الوقت أحدثت ثورة فى علم اللغويات وأوضحت بشكل اتسم بالتعقيد والدقة العلمية العلاقة بين النطاق الإدراكى واللغة وذهبت إلى القول بأن دراسة اللغة هى دراسةالعقل الإنسانى، ولمزيد من التفصيل ارجع إلى كتاب تشومسكى العقل واللغة (١٩٦٨) ولقد كان من أهم ما تركته نظرية تشومسكى من أمور حيوية لم يوضحها البحث «الأمبريقى» الذى كان سائدا قبلها الآتي :

(أ) إن اللغة أكثر من مستوى تركيبى وأن هناك مستوى سطحى (Surface structure) وآخر عميق (Deep structure) وأن العلاقة بين المستويين تتسم بدرجات مختلة من التعقيد ولقد أوضحت النظرية قواعد الربط بين المستويين بدقة وصرامة علمية كبيرة .

(ب) ان هناك قواعد للتحويل من تركيب لآخر .

(ج) ان معرفة القواعد تختلف عن عملية استخدامها وهذا ما أوضحته النظرية من خلال تعبيرى «الكفاءة» و«الأداء» (Competence & performance) وأن اهتمام البحث اللغوى يجب أن يركز فقط على «الكفاءة» لوضع تصور علمى مثالى يصف أنظمة القواعد على مستوى لغات العالم (الأمر الذى كان محل

نقد شديد من قبل المدرسة الرئيسية الثالثة التى سوف يلى ذكرها والتى تركز على مفهوم «الأداء» فى المقام الأول) .

(د) إن الإنتاج اللغوى والإبداعية فى استخدامات اللغة تحكمه قواعد أوضحتها النظرية .

لقد كان لهذه النظرية آثار كبيرة على فكر الباحثين اللغويين إلى الآن وتمخضت عنها نظريات أخرى ولكنها ظلت تحت إطارها العام. كذلك فلقد تأثرت بهذه النظرية عدة أنظمة أكاديمية أخرى على سبيل المثال مجال «الذكاء الصناعى» (Artficial Intelligence) فى علم الكمبيوتر، وكذلك تأثرت بهذه النظرية الدراسات المتمخضة عن العلم الازدواجى المعروف بعلم اللغويات السيكولوجية (psycholinguistics) خاصة تلك الدراسات التى ركزت على موضوع اكتساب اللغة (Language Acquisition).

ثم جاءت الفترة الرئيسية الثالثة، والتى نحن بصددها الآن، فى تطور المنهجية فى علم اللغويات لتشهد توجه مضاد ينتقل بعلم للغويات من الإطار الذى وضعه تشومسكى والذى يركز فى تحليلاته على التركيبات النحوية أساسا "syntactic structures" ومن منطلق «استدلالى» إلى إطار معالجة مستويات أكبر تعالج مستويات اللغة الكامنة والظاهرة والمختلفة معا من تركيبات معانى "Semantic level" وتركيبات نحوية "Syntactic level" وتركيبات فونولوجية (صوتية وظيفية من نبرات صوات إلى آخر) . "phonolgoical level" منتقلة بذلك نحو معالجة أكبر فى

نطاق معالجاتها تصل إلى مستوى المطارحة بالكامل (Discourse level)من هنا اخـتلف تحليل المطارحـات (discourse analysis)عن تحليل المضـمون (content analysis) الـذى يعـالج «المحـتوى الظاهر للاتصـال فـقط مّن خـلال وصـفـه وصـفـا موضوعيا منتظما وكميا »(برلسون ١٩٥٢) .

وكـان هذا مـعناه التـعامل مع وحـدات لغوية أكبـر من الجـمل والفـقرات ولقد شـاهد علم اللغويات دراسـات تراكمـيـة كبيـرة منذ السبـعينيات إلى الآن فى أطر هـذه المدرسة الرئيسية الثالثة والتي قد يطلق عليها المدرسة البرجماتية (pragmativism) كذلك ظلت إلى الآن توجهات المدرستين السابقتين قائمة) .

ولقـد بدأت تظهـر توجـهات مـختلفـة فى إطار الثـالثـة إلا أن هذه التوجـهات قـد أجمعت على نقد المدرستين السـابقتين وكـان من أعلام هـذه المدرسة الثالثة والتى اهتمت بتحليل واقع المطارحـات وليام لابف (Labov) روجـر شـاى (shuy) ، كمـبرز (Gumperz)، شيـف (Chafe)، وتنين (Tannen).

ولقـد جـمـعت هذه المدرسـة بين الاسـتراتيـجـيـة الاسـتـقـرائيـة والاستـدلالية (Induction & deduction" فـيـمـا عـرف بالاستراتيجية الدائرية "Abduction approach" .

ومنطلق بدء البحث طبقا لهذا المنهج هو تجنب الأمثلة الموضـوعة أو المتصـورة وهو مـا قـد يسمى بأمثلة الكرسى الهزاز (Rocking chair examples) فـعلى سـبـيل المثـال بدأ لابف وفـانشـيل

(Labov & Fanshel)(١٩٧٧)، بتحليل وحدات «أثر أفعال القول» (Speech Acts) فى سياق المقابلات العلاجية (thrapautic interviews) بين الأطباء والمرضي، وكانت نتائج هذا التحليل هامة فيما يتعلق بتركيبة ووظائف «أثر أفعال القول» وطرق تحليل هذه الوحدات والسبب يرجع إلى تحليل هذه الوحدات فى سياق طبيعى وحقيقى وليس من خلال الأمثلة المتصورة. فلم يبدأ لابف وفانشيل (على سبيل المثال) بفكرة أن معلوماتنا عن نظرية «أثر أفعال القول (Speech act theory) قد تتقدم من خلال فحص وتحليل الاستخدام الحقيقى (الطبيعى) للغة ولكنهما قد بدءا بالمشكلة الخاصة بكيفية إسهام عملية التحليل اللغوى فى فهم أعمق لطبيعة المقابلة العلاجية بين الأطباء والمرضى. إن هذا التوجه الدائرى (Abduction) لقريب الصلة بمفهوم التركيبية الاجتماعية (Social constructivism) الذى يستند بدوره على أن الأشياء (objects) لاتوجد فقط فى العقل (innatism) أو فى العالم (Empiricism) ولكنها على العكس من ذلك تتكون من خلال الأفعال المتعمدة للوعى. أى أن العملية تراكمية وهى لا تتركز فى الفرد كما كان شائعا ولكن هذه العملية تتركز فى تركيبة التفاعل الاجتماعى أساسا والتى يجب أن يدرس من خلال تفاعل الناس وليس من خلال الأمثلة المتصورة من عقل الإنسان (أنظر توميك وشاى، Tomic & Shuy ١٩٨٧، وميهان Mehane ١٩٨٢) .

إن من أهم منطلقات هذه المدرسة اذن هو المحاولة العملية

لملاحظة وتحليل ظواهر الأداء اللغوى في السياقات المختلفة دون الارتباط المسبق بنظرية أو طريقة تحليل بعينها خاصة تلك الأساليب المستمدة من العلوم الطبيعية كما هو سائد فى الكثير من دراسات العلوم الاجتماعية بما فيها اللغويات وذلك من منطلق أن البحث العلمى وعملية التنظير الخاصة بالعلوم الاجتماعية وعلى وجه الخصوص المتعلقة بتحليل الأداء اللغوى تحتاج إلى السيطرة على عوامل أصعب وأعقد من العوامل التى تتم السيطرة عليها معمليا فى العلوم الطبيعية وكذلك الوضع فيما يتعلق بايجاد فهم أعمق لإشكاليات الواقع .

وقبل أن تنتقل هذه الدراسة إلى جزئها الثالث نستعرض هنا الجزء الأخير من الشكل رقم (١) والخاص بالمفاهيم الخاصة بالبحث الامبريقى والمتداولة فى العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى الإمبريقية الاستدلالية، والأمبريقية الأولية، والامبريقية الاستقرائية كما تفهم من بيرلسون وجارى Berlson & Gary ١٩٦٤، وفليرون ١٩٦٩ .

(أ) الامبريقية الاستدلالية Deductive Empiricism :

وهذه الاستراتيجية عبارة عن مجموعة من الافتراضيات المستمدة من مجموعة متداخلة عن النظريات، وعند التحقق من هذه الافتراضيات يتم التحقق من تلك النظريات التى استمدت منها (وبإيجاز فالأمر يتلخص من الحركة من تبنى موقف نظرى ما إلى تبنى موقف نظرى آخر) .

وهى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نظرية أمبريقية (Empiricial theory) (تستخدم فى سياق الاستكشاف والتحقق) .

النوع الثانى : نموذج نظرى (Theorerical Model) مثل نظرية (Game theory) المباراة .

النوع الثالث : نظرية مستمدة بطريقة أو بأخرى من الحدس والتصور البديهى .

والنوع الثانى والثالث يستخدمان فى سياق الاستكشاف فقط مثلهما فى ذلك مثل «الامبريقية الأولية» التالى ذكرها .

(ب) الامبريقية الأولية (Raw Empiricism) :

وتستخدم هذه الاستراتيجية فى البحث الذى لايوجد له سوى القليل جدا من الأدبيات وكذلك الافتراضيات القليلة الخاصة بموضوع البحث .

ويتعامل الباحث فى هذا السياق (The RawEmpircist) مع البيانات (Data) دون أن يتعامل بعمق مع عملية تكوين افتراضيات من الممكن التحقق منها عن طريق استدلالها من مجموعة النظريات الصغيرة (Theorems) أو الفروض النظرية المتداخلة (Interrelated postulates) ولكن على العكس من ذلك فإنه «يغرق نفسه فى البيانات» أى يتعامل معها بالطريقة التى يريدها وبكثافة ليحدد ما هى خطوط الاتساق (Regularities) التى سوف تظهر من جراء هذا النشاط ليرى ماهى التعميمات التى من

الممكن تكوينها عقب ذلك، وتستخدم هذه الاستراتيجية فى مجال الاستكشاف فقط .

(ج) الاستراتيجية الاميريقية الاستقرائية Inductive Emiricism

وهذه الاستراتيجية تحتل الموقع الوسط بين الاستراتيجيتين السابقتين وعادة ما تستخدم فى الأبحاث التى تتعرض لوجود نظريات متصارعة والغرض منها هو اختبار نصوص من هذه النظريات عن طريق تحليل البيانات (Data) والوصول إلى بيان متسق بشأن نقاط التصارع لمحاولة الاستفادة من هذه النظريات بطريقة متسقة وبدون تناقض .

وتستخدم هذه الاستراتيجية فى مجال التحقق فقط (Verification).

وقرار الباحث لاستخدام أى استراتيجية من الاستراتيجيات السابقة الذكر مرهون باعتبار مشكلة البحث وتوافر الأدبيات والأبحاث السابقة فيما يتعلق بموضوع البحث من عدم توافرها وكذلك بتوافر البيانات من عدمها ولمزيد من التفصيل أنظر فليرون Fleron وبيرلسون وجارى Berlson & Gary (١٩٦٤) .

ثالثا: النموذج المقترح لتحليل ديناميكات مطارحات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية :

إن الهدف من بناء النموذج النظرى المقترح هو تحليل لديناميكيات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية وتقديم

تصنيفـــا تحليليـا لهـا (Taxonomic Analysis). ولقـــد تبنى البـاحث أولا اســتراتيجـيـة الامـبـريقـيـــة الاســـتدلاليـة (Deductive Empiricism) وهى خـاصـة بالتنقل من مـوقف اجراءات) ثم تبنى الباحث استراتيجية الامبريقية الأولية Raw Empiricism فى تعامله مع البيانات بغرض استكشاف وفهم طبيعة ديناميكيات واستراتيجيات القدرة فى التفاوض مستعينا فى ذلك بالنظريات والأدوات المناسـبـة للتـعـامل مع البـيـانات لتكوين افتراضيات البحث .

ثم تبنى بعد ذلك الباحث الاستراتيجية الامبريقية الاستقرائية Inductive Empiricism لتـحليل البـيـانات للتـحـقق من الافتراضيات وكذلك لحل أى تناقض يبدو بين المكونات النظرية التى استخدمت فى البحث .

إن انتهاج هذه الاستراتيجيات بهدف فهم طبيعة موضوع البحث والتحقق من نتائجه والتنقل من الاستدلال للاستقراء فى شكل دائرى هو ما اصطلح على تسميته فى علم اللغويات باستراتيجية البحث الدائرية Abduction.

وقد استند نموذج التحليل إلى افتراضيتين أساسيتين :

(١) افتراضية ازدواجية تنص على أن الباحثين يستطيعون تقديم فهم أعمق وأفضل لمفهوم «القدرة» "Power" كمفهوم ديناميكى واستكشاف ديناميكيات المطارحات المتعلقة به فى سياق المفاوضات السـيـاسـيـة الدولية من خلال تحليل هذا المفـهـوم من منظور علم اللغويات – العلوم السياسية – وعلم العلاقات الدولية .

(٢) افتراضية لغوية خاصة بتحليل المطارحات Discourse Analysis تنص على وجود علاقة تداخلية بين المفاهيم اللغوية التالية :

(أ) أثر فعل القول (Speech act) من زاوية الأثر المتعارف عليه والمراد إيصاله لمستقبل الرسائل (Illocutionary Force of Utterances) ومن زاوية الأثر الفعلى الذى أحدثه فعل القول على المستقبل له (Perlocutionary effect)

(ب) مفهوم «التحركات» (Moves) الاستراتيجية منها والتكنيكية .

(ج) مفهوم «الموضوع» (Topic) من زاوية جدول الموضوعات (Topic agenda) والموضوعات الناتجة عن التفاعلات (Interactional Topics) .

وتنص هذه الافتراضية اللغوية على أن هذه المفاهيم الثلاثة بالأبعاد المشار إليها ترتبط ارتباطا وثيقا ببعضها البعض وتمثل ما أسماه الباحث بـ «عنقود التفاوض اللغوى» (Linguistic Negotiational Cluster) والذى يتيح النظر إلى تلك العناصر المشار إليها آنفا مجتمعة للوصول إلى ترجمة أو قراءة متسقة وراسخة لكيفية استخدام هذه العناصر من قبل المفاوضين لتحقيق الأهداف التعاونية المختلفة مثل : التعهد - إيجاد البدائل أو سد الطريق لها، تحقيق التوازن - التأجيل - التذكير والتهميش.. إلى آخره من مفاهيم تفاوضية.. كذلك فإن البحث يوضح أن عناصر هذا «العنقود» تمثل كل منها وسيلة للتأكد من صلاحية تحليل كل عنصر من هذه العناصر (Verifivational devices) .

(٣) إن هناك خصائص عالمية فى استراتيجيات التفاوض وأخرى مرتبطة بالخصوصية الثقافية .

وصف النموذج المقترح :

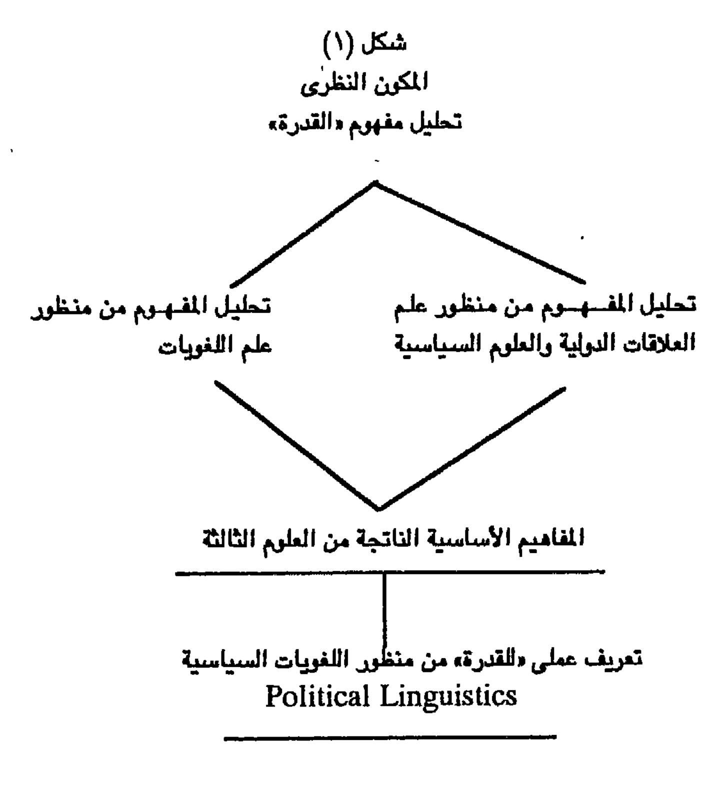
(أ) المكون النظرى :

يوضح الشكل التالى وصف للمكون النظرى حيث يتم تحليل لمفهوم القدرة من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية والعلوم السياسية.

شكل (١)

المكون النظرى

تحليل مفهوم «القدرة»



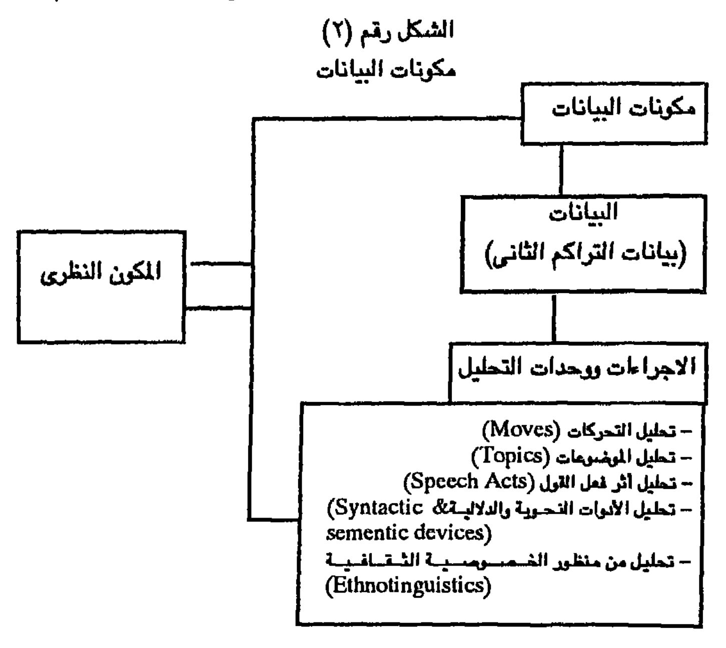
وتقديم تعريف علمى له "operational definition" ويستمد هذا التعريف عناصره من التعريفات الشائعة فى علم اللغويات لمفهوم «كفاءة الاتصال» "communicative competence" والذى تم ربطه بتعريف دول "Dahl" الشائع لمفهوم القدرة فى العلوم السياسية، وهو قدرة الطرف «المفاوض» (أ) أن يحقق أهدافه التفاوضية من خلال تعامله مع الطرف «المفاوض».

(ب) . (أنظر دول ٨٠: ١٩٦٩) .

(ب) وصف مكون تحليل البيانات:

ويرتبط مكون تحليل البيانات بالمكون النظرى لتوضيح علاقة التنظير بتحليل البيانات جيئة وذهابا كما يوضح ذلك الشكل (رقم٢).

الشكل رقم (٢)
مكونات البيانات



وفيما يتعلق بمكون البيانات نلقى الضوء على:

(١) وصف للبيانات والصعوبات التى قابلت الباحث..

(٢) الاجراءات ووحدات التحليل الأساسية..

(١) وصف البيانات والصعوبات التى قابلت الباحث وكيف تم تذليلها :

رأى الباحث أهمية تحليل ديناميكيات مطارحات القدرة من خلال تحليل مواقف تفاوضية مثلت أداء المفاوضين الذين أثرت استراتيجيات تفاوضهم على مصائر اتجاهات أهم الصراعات التى شهدها العالم منذ الخمسينيات إلى يومنا هذا (مثل السادات، كيسنجر، نيكسون، عبد الناصر، الجنرال جياب الفيتنامى.. الخ) كذلك اشتمل بنك البيانات الخاص بهذا البحث على شخصيات إعلامية بارزة مثل تيد كوبل "Ted Koppel" معد ومقدم البرنامج الاخبارى الليلى بمحطة A.B.C بالتليفزيون الأمريكى والذى يقوم فيه بإدارة اللقاء مع الشخصيات السياسية العالمية.. جين كيركبتريك Jean kirkpatrick أستاذ العلوم السياسية وسفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة لوقت طويل.. المذيع الأمريكى سام دونالدسون (Sam Donaldson) والمذيعة الأمريكية بابرا والترز (Barbra Walters) والصحفية الإيطالية فلاشى (Fallaci)– الكاتب والصحفى العربى محمد حسنين هيكل – وشخصيات رسمية إعلامية وأكاديمية أمريكية ومصرية .

لقد كان من الصعوبة البالغة بطبيعة الحال الحصول على

نصوص المواقف التفاوضية كلها من خلال تسجيلات حية كما هى العادة فى أبحاث مدارس المطارحات بعلم اللغويات حيث يتمكن الباحثون عادة من الحصول على تلك التسجيلات آلية (Naturally occurring Data) فى تحليلاتهم للمطارحات القضائية ومطارحات الأطباء (والمرضى والطلاب) والأساتذة، والمحادثات فى السياق الاجتماعى العادى وربما لهذا السبب لم توجد بعد دراسات من علم اللغويات تعالج أمر المطارحات السياسية ولكن بسبب اهتمام الباحث بهذا الموضوع فلقد رأى أن يقدم ما أسماه ببيانات التراك الثانى (Track two Diplomacy Data) والتى عرفها بأنها تتصف بكونها قد سبق الإعداد لها بصورة أو بأخرى... أي أنها ليست تسجيلات حية بالمعنى الذى يقصده الباحثون فى علم اللغويات ولكنها عبارة عن مواقف تفاوضية من خلال البرامج الإذاعية السياسية مثل المقابلات (Interviews) وتلك المسجلة فى كتب السيرة الذاتية (Autobiographical Discourse) والخطابات (Speeches) والندوات السياسية (Symposia). ولقد وجد الباحث أن هذه النوعية من البيانات مناسبة إلى أبعد حد لدراسة موضوع البحث وذلك لكونها تتصف بالصفات التالية :

* إنها كلها تمثل وسائل يمكن من خلالها تحديد استراتيجيات المتفاوضين كذلك فإنها تعبر عن قناة حقيقية يستخدمها القائمون على إدارة الصراعات .

* إن المقابلات فى تركيبها ومعظم أحوالها قريبة إلى التسجيلات

الحية بالمعنى الذى يقصده الباحثون فى علم اللغويات وكذلك الأمر فى الندوات .

* إن المواقف التفاوضية كماهى موجودة فى كتب السيرة الذاتية تمثل نوعية خاصة من البيانات الغنية للغاية للتحليل والتعرف على الاستراتيجيات التفاوضية المختلفة فهنا يسجل مفاوض ما رؤيته لموقف تفاوضى ما وكذلك رؤية الآخرين لنفس الموقف كما رآها هو.. وكثيرا جدا ما يقدم المفاوضون نصاً لما حدث ومن غير المعروف أن يكون هذا النص مسجل لديهم أم هو مكتوب من الذاكرة.. وفى كلتا الحالتين فالمادة خصبة لتحليلها.. خاصة إذا ما تمت مقارنة نصوص نفس المواقف التفاوضية من خلال ما ذكره أكثر من مفاوض اشتركوا فى نفس المفاوضات الحقيقية على سبيل المثال لا الحصر أنظر إلى كتب السيرة الذاتية .

لما حدث فى أزمة أكتوبر ١٩٧٣ لتجد أن معظم من اشتركوا فى إدارة الصراع فى ذلك الوقت قد سجله فى سيرهم الذاتية.

(أنظر السادات ١٩٧٧، كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمى ١٩٨٥) وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

ولقد تم تحليل المواقف التفاوضية التالية من بنك البيانات الخاصة بهذا البحث :

* مواقف تفاوضية من كتب السيرة الذاتية : (السادات ١٩٧٧ كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمى ١٩٨٥) .

* مواقف تفاوضية من المقابلات (تيد كوبل، فلاشى، ولترز،

دونالدسون) مع الشخصيات الآتية :

– مناحم بيجن ، السادات، جين كريك باتريك، آيات الله الخمينى، الجنرال جياب.. الخ .

* مواقف تفاوضية من وثائق (نص الإنذار النهائى لمصر عام ١٩٥٦ وخطاب عبد الناصر من الأزهر للرد عليه .

* وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى (محمد حسنين هيكل) ١٩٨٣ .

* بيانات مسجلة (تسجيل حى – ندوات – محادثات على المستوى الاجتماعى، كبيانات تدعيمية (Back up data)) .

ولقد وحد بين هذه النوعيات من البيانات هو تعريف الموقف التفاوضى على أنه ذلك الموقف الذى يبدأ فى تفاعل طرفان «أو أكثر»، وتتصارع فيه قائمة الموضوعات (Topic agenda)الخاصة بهما «بهم» ومحاولة كل طرف تحقيق أغراضه من عملية التفاوض .

وتستعرض المواقف التفاوضية فى هذا البحث تلك التى حدثت أثناء احتدام الأزمات والأخرى التى حدثت فى أوقات غير أوقات الأزمات .

(٢) الاجراءات ووحدات التحليل الأساسية :

* تحديد وتعريف النمط الرئيسى لنوعية ديناميكيات «القدرة» فى الموقف التفاوضى محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضى وذلك من خلال توضيح السياق الشمولى وموضوع التفاوضى محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضى وذلك من خلال توضيح السياق الشمولى وموضوع التفاوض .

* تقديم نص الموقف التفاوضى .

* تقديم تحليل للموقف التفاوضى من الناحيتين الوظيفية (functional) والتركيبية (structural) وذلك بتحليل :

التحركات Move Analysis

الموضوعات Topic Analysis

أثر أفعال القول speech Act Analysis

الأدوات النحوية والدلالية Semantic & syntactic devices

* تحليل الموقف التفاوضى ذاته مرة أخرى من منظور الاتصال عبر الثقافات Cross cultural communication (or Ethnolinguistics)

لتحديد مصادر وأسباب سوء التفاهم (إن وجد) أثناء الأداء اللغوى والذى قد ينتج بسبب استخدام تركيبات لغوية ثقافية خاصة.

رابعا: الخاتمة ومجالات استخدام النموذج المقترح :

تؤكد هذه الدراسة على أهمية وجوب التوجه نحو الازدواجية الرأسية المتعمقة (Vertical Interdiscipilinarity) لتحليل ظواهر السلوك الإنسانى المعقدة بطبيعتها وكان المثال العملى المشار إليه فى هذه الدراسة هو تحليل لديناميكيات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية من خلال رؤية مستمدة من علم اللغويات لطبيعة البحث الامبريقى ومن خلال تحليل أكثر من ٣٠ موقفا تفاوضيا .

وكذلك قدم الباحث نوعية من البيانات التي يسهل الحصول عليها والتى أطلق عليها تعبير بيانات التراك الثانى .

وأوضح الباحث أيضا طريقة من الطرق التى يمكن بها معالجة البيانات للوصول إلى فهم لاستراتيجيات «القدرة» فى الأداء اللغوى وتصنيفا تحليليا لها طبقا للنموذج المقترح، ولقد أدى تحليل البيانات إلي إعادة تقييم تصنيفات تحركات المفاوضات (Bargaining moves).

المراجع

Al- Gabry, Muhammed Abed. Contemporary Arab political Speech : An Analytical and Critical Study (In Arabic). Dar - Al Taliah : Beirut, Lebanon October, 1985.

Al - Gabry, Muhammed Abed. The Formation of the Arab Mind (part 1& II). Center for the studies of Arab Unity: Beirut, 1984 and 1986.

Aron, Raymond. peace and War: A theory of International of Relations, Doublreday : Garden city, NY, 1966.

Azar, Edward. ""The Confict & Peace Data Bank (OPDAB) Project" Journal of Conflict Resolution, Vol. 24, No. 1March, pp.143-52,1980.

Bell, David, "International Negotitions and Political Linguistics", Un published paper york University, political Science: ontario, canada, 1988.

Berelson, B., Content Analysis in communication research, Free press 1952.

Berelson, B,. Bernard & Gary A. Steiner, Human Behaviour : An Inventory of Scientific findings (New york : Harcourt, Brace and World, 1964.

Bernstein, B. "Language and social class . In Brit . J. Social II, 27 L6. 1960

Chomsky, Noam, Aspects of aTheory of syntar, MIT press:

Cambridge, Mass 1965.

Chomsky, Noam, Language and the Mind, Harcourt, Brace & World, Inc., 1968.

Dahl, R.A. " The Concept of Power" in Political power : A Reader in Theory and Research (R.Bell, D.V. Edwards & R.H. Wanger, Eds)., The Free Press Orig. New York, 1969.

Deutch, Karl W. Nationalism and social communication : An Inquir into Foundations if Nationality , 2nd Ed., MIT : Cambridge MA., 1966 .

Deutsch, Karl W., Analysis of International Relations, Prentice Hall, Inc : New Jersay, 1978 .

Fleron, Frederic, Communist studies & the social Sciences, Rand MCN. nally & Company, m Chicago, 1969.

Sittmar, Norber A Critical Survey of Sociolinguistics Theory and Application Translated from German by Peter, S. and pieter, et al., Nortin's Press : New york,1976 .

Foucault Michael," Politics and the study of Discourse, " Ideology and consciousness, pp.7-26,1978.

Gumperz, john "Sociocultural Knowledge in Conversational Inference" From Muriel Sacille- Troike, ed., Georgetown University Kound Table on Languages and Linguistics, Georgetown University Press : Washington, D.C., 1977.

Gumperz, jojn, "Verbal strategies in muitilongual communications 1970" (In Alatis 1970: Report of the 20th annual table meeting on Linguistics and Languages studies Monograph series on languages and linguisties 22. Washington, D.C.

Hassan M. Wageih "A linguistic Analysis of Mechanisms underlying power in international political Negotiations" A Dissertation, Georgetown University Washington, D.C 1989 .

Holsti, K.J International politica: A Framework for Analysis, (1st Edition, 1966) Prentie Hall : New Jersey, 1988 edition.

Jesperson, Otto, Language : its Nature, Development and Origin London: Allen & Umwn, 1922.

Labov William and Fanshel, David. Therapeutic Discourse, New York: Academic Press. 1977 .

Lado, Robert. Linguistics Across cultures : Applied linguistics for Language Teachers. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1957 .

Lado, Robert, " How to test cross Cultural Understanding: in Robert Lado, Language Testing, London : Longmons, Green, 1961 New York McGraw-Hill, 1964, pp. 275-89.

Lakoff, Robin, " persuasive Discourse and ordinary with Examples from Advertising" in, D. Tannen's Analyzing Discourse Text and Talk, Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics, Georgetown University Press: Washington, D.C 1981.

Lyons, john Language & Linguistics , Cambridge University Press, 1981.

Mehan, Hugh. "Social Constructivisim in paychology & Sociology" sociologie et societies Ino. 2,77 - 96 1982.

Onuf, Nicholas. " after International Relations : The Constitution of Discipilines and their Worlds" a paper presented at American political Science Association, Chicago, Illinois, Sept., 1987.

Rorty, Richard. The Linguustuc Turn : Recent Essays on Philosophical /method, University of Chicago press : Chioago, 1967.

Shuy Roger W. " W "Conversaional power in FBI convert Tape Recordings" in power through discourse, leah kedar, ed .,1987.

Shuy Roger W. Topic as the unit of analysis in a criminal law case, in analyzing Discourse: Text and Talk, ed. D.Tannen Gorgetown University Press :Washington, D.C , 1981.

Tannen, Deborah. " The pragmatics of Cross - Cultural Communication, " Applied Linguistics, Vol 5, No. 3, 1984.

Tannen, Deborah, Thats Not What I Mean : William Morrow & Co., Inc: New york, 1986.

Tomic Olca & Shuy, Roger, The Relation of Theoretical & applied Linguistics Plenum press. New York, 1987.

Walker, Anne G." Linguistic Manipulation, power and the legal setting" jorum, Georgetown Graduate Review, vol 1. No 1, Spring 1984.(also in kedar's ed., 1987).

Weindtein, Brain. The Civic Tongue : political Consequences of Language Choices, Longman : London, 1983.

Yassin, El Sayed. " In Search of a New Identify of the Social Sciences in the Arab World: Discourse, Paradign, and strategy " in The Next Arab Decade: Alternative Futures ed, by H. Sharabi (English version), Westview press: Colorado, 1988 (Arabie Version issued in 1986) .

ضد المنهج

إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة

د. أحمد أنور أبو النور (*)

(*) مدرس بقسم الفلسفة بآداب المنوفية.

ليس من شك في أن النزعة العلمية Scientism قد سادت الفكر الغربي فى القرون الأربعة الأخيرة على وجه العموم . وكان الخلاف بين المدارس الفلسفية يدور أساساً حول مدى قدرة كل منها على التوافق مع هذا المارد الذى فتن الناس بنتائجه الباهرة ، وتطبيقاته المتنوعة، والاتساع المستمر لنفوذ نظرياته المختلفة . وسريعاً ماانتقلت عدوى الافتتان بالعلم الى معظم الاتجاهات الفكرية فى دول العالم الثالث ، والى المخططين والساسة الذين قادوا هذه الدول فى مراحل التحول وتأسيس السلطة الوطنية فى كل منها .

ولسنا بحاجة الى رصد تاريخ هذه النزعة منذ بداياتها الأولى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى يومنا هذا ، ويكفى التوقف بعض الشئ عند عناصر النزعة العلمية المتطرفة كما تجلت فى القرن العشرين عند أعلام المدرسة التجريبية العلمية، حيث إن هذا التيار الفكرى يمثل أكثر أشكالها وضوحاً وطموحا. ويمكن تلخيص هذا الموقف فى خمسة عناصر مترابطة [Sorell(1991),p.4] .

أولاً : وحدة العلم: العلم الإنسانى تنتظمه وحدة كاملة تتوارى خلف التنوع الظاهر ، ذلك أن قوانين نظرية معينة يمكن ردها الى قوانين نظرية أخرى ، وكذلك الحدود الواردة بنظرية معينة

سريعاً ماتجد تعريفاً لها فى نظرية أخرى أكثر أولية منها [Ibid, p.5] ويأتى هذا الاتجاه معارضاً لاتجاهات كثيرة تعترف بالاختلاف الجوهرى بين العلوم الاجتماعية والانسانية من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى { دلتاى مثلاً} من حيث المنهج ومن ثم فى النتائج التى تتوصل اليها كل منها على حدة.

ثانيا : لاحدود للعلم : يعترف التجريبيون بداية أنه ربما تكون هناك أبعاد معينة من التجربة الإنسانية فى هذا العالم تقع خارج حدود العلم . أما بالنسبة للبعد الخاص به، أى البعد الذى يهتم بدراسته، فالعلم لاحدود تقف في طريقه. يقرر كارناب فى هذا الصدد أنه حين نقول إن العام لاحدود له فنحن نعنى أنه ليس هناك سؤال إلا ويستطيع العلم ، من حيث المبدأ ، يقدم إجابة عنه [Carnap(1967), p.20]

ثالثاً: أثبت العلم نجاحا هائلاً فى التنبؤ والتفسير والتحكم ، وتدلنا دراسات كارناب وكارل همبل على تحقق هذا الأمر فى الفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية، بل فى حالة العلوم النفسية والاجتماعية أيضا [Sorell(1991),p.6] ويلاحظ سوريل أن الفلسفة تجد أيضا مكانا ذا قيمة فى هذا المخطط الذى ترسمه الملامح الثلاثة معاً وهو ما يدعونا الى البحث عن الأساس الذى ينبنى عليه نجاح العلم واختراقه للحدود التى تمنع الأنظمة الفكرية المنافسة من الانطلاق ، وكذلك اقترابه من

التوحد النسقى الذى يؤكده أصحاب النزعة التجريبية .

رابعاً : المنهج العلمى يحقق الموضوعية للنتائج التى يتوصل اليها العلماء ، والحقيقة أن المنهج هو السر الذى يراه التجريبيون وراء نجاح العلم، وهو لذلك يكفى لتفسير هذه السمات الجوهرية التى يوصف بها النشاط العلمى ، ويجعل من المقبول الوثوق به الى حد كبير . والمنهج هنا يضمن للعلم ألا يضل ، وإنما يتمكن العلماء بواسطته من الكشف عن قوانين الواقع .

خامسا : العلم كان دائما فى صالح الإنسان . وبالرغم من أن هذا الملمح يكاد يكون نتيجة طبيعية للملامح الأربعة السابقة، إلا أن سوريل يعتبره أهم الملامح في تعريف النزعة العلمية المتطرفة التى يخصص دراسته الهامة لها . [Ibid, P.7] ونحن لانتفق بالضرورة مع ما يؤكده سوريل ، لأننا فى الواقع نعتبر الإيمان بالمنهج العلمى الصارم هو الأساس فى كل نزعة علمية سواء كانت متطرفة أو معتدلة . أما قضية كون العلم فى صالح الإنسان أم لا فهى مسألة خلافية ، وهو ماسيتضح فى نهاية البحث على كل حال أما قضيتنا المحورية التى ستشغلنا فى هذه الدراسة فهى المنهج العلمى قبل أى شئ آخر.

والمدخل الصحيح لقضيتنا المحورية يرتبط بسؤال يتردد الآن بقوة فى الثقافة الغربية ويتعلق أساساً بالوضع الخاص

اكتسبه العلم فى تلك الثقافة ، وانتقل ببساطة الى ثقافتنا العربية ، بل كاد يصبح ثابتاً أساسياً فى الثقافة العالمية ككل . ما هو السبب الذى يكتسب من أجله العلم هذا الوضع الخاص بالقياس الى أشكال الوعى الانسانية الأخرى ؟ ولاشك أن أهم من سأل هذا السؤال فى النصف الثاني من القرن العشرين هو الفيلسوف النمسوى المعاصر بول فيرابند وإن لم يكن الوحيد الذى شغله هذا الأمر الذى يعكس فى تقديرى أزمة العقلية الغربية منذ بداية الخمسينيات على الأقل .

فى هذا السياق التاريخى المضطرب انطلقت اسهامات بول فيرابند المثيرة للجدل فى نقد العلم والنزعة العلمية المتطرفة . هذا المفكر المحير الذي نضجت عبقريته الفكرية وروحه الفنية عشية نهاية الحرب العالمية الثانية ، هذا المفكر أعلن صراحة أن الصورة التى بذل الفكر الغربى جهوداً جبارة على مدى عقود طويلة فى رسمها للعلم لاتتطابق مع واقع الممارسة العلمية الفعلية من قريب ولا بعيد، فضلاً عن أنها لاتمثل ما يجب أن يكون عليه العلم على أى حال .

ويأتى كتاب فيرابند الشهير والمثير للجدل " ضد المنهج Against Method والذى صدر في منتصف السبعينات ليشكل خلاصة دراساته العميقة حول تاريخ العلم وقضاياه الفلسفية المتشابكة . وهو يعلن فى مقدمة الكتاب تبنيه لنظرية

فوضوية فى المعرفة على وجه العموم وفى فلسفة العلم على وجه الخصوص [Feyerabend, p.(1975), p.18] .

إن الفوضوية ليست بالضرورة الفلسفة السياسية المثلى الصالحة للمجتمع الإنسانى كما يعترف بذلك فيرابند ، ولكن المنهجية الفوضوية anarchistic Methodology ، ومايتبعها من علم فوضوى anarchisitic science يمثلان معاً نظرية المعرفة المثلى من وجهة نظر مفكرنا . ولانشك لحظة فى أن هذه العبارة هى من أشد صياغات حركة نقد العلم تطرفاً ، وفيها يظهر مدى معاداة تيار من المفكرين الغربيين المعاصرين للنزعة العلمية التى سادت الفكر الغربى زمناً طويلاً على النحو الذى أو ضحناه منذ قليل .

ويبدأ هجوم فيرابند الشامل بالتركيز على المنهج العلمى كما يتبين من خلال كتابات فلاسفة العلم سواء كانوا من أجيال الرواد أم كانوا من الكتاب المعاصرين ، مؤكداً أن بالإمكان بيان فساد كل القواعد المنهجية المتعارف عليها مما يعنى أنه توجد دائما ظروف ينصح فيها لا بمجرد تجاهل تطبيق هذه القواعد ، بل بتطبيق عكسها تماما [(1975), p.23] ، وهذا معناه أننا لسنا أمام مجرد نقد حاد لمنهجية معينة لوجه قصور معين فيها ، وذلك لصالح منهجية أخرى كما قد يحلو للبعض أن يستنتجه من بعض العبارات المقتطعة من السياق العام لكتاب

إن صاحبنا يصر على أن كل القواعد المنهجية التى يتشدق بها فلاسفة العلم سواء الاستقرائيون أو التكذيبيون تتعارض تماماً مع مصلحة العلم بمعنى أنه يجب اسقاطها وتطبيق قواعد عكسيةCounterrules محددة . وعلى سبيل المثال يجب علينا فى الممارسة العلمية الفعلية أن تطبق فى أحيان كثيرة فروضا عينية ad hoc hypothesis أى فروضا لاقيمة لها إلا إنقاذ نظرية علمية متناقضة ، وعلى العلماء أن يقدموا أحيانا فروضا تتناقض مع نظريات قائمة بالفعل ، بل وأن يقدموا فى أحيان أخرى فروضا علمية متناقضة مع النتائج التجريبية المقبولة والمستقرة . [pp.23-24]

كل هذه النصائح المنهجية التى يروج لها فيرابند تتعارض تماماً مع كل المنهجيات القائمة ، وهو يتحداها لابتقديم الأدلة "العقلانية " التى تدعم وجهة نظره فقط ، بل بالاحتكام الى محكمة فلسفة العلم التى لامناص منها ، وهى المتمثلة فى تاريخ العلم ، وهو الذى يؤكد كل القواعد العكسية التى يعلنها فيرابند

ومن الواضح أن فكرة وجود منهج محدد أو نظرية محددة للعقلانية تقوم على نظرة ساذجة للإنسان ومحيطه الإجتماعى ... هناك مبدأ وحيد يمكن الدفاع عنه فى جميع الأحوال ، وفى كل مراحل التطور الإنسانى إنه مبدأ "anything goes" الذى نترجمه بعبارة «كله ماشى» العامية الدارجة والتى أتصور أنها

تلخص وتكثف فلسفة فيرابند العلمية ولذلك فضلنا ترجمة المبدأ بهذا التعبير المستعار من اللغة الدارجة وهو ما يتوافق بالقطع مع مزاج صاحبنا على كل حال [pp. 27-28].

* * *

عند هذا الحد يحق لنا أن نسأل فيرابند: ما معنى مبدأ «كله ماشى» الذى تروج له بهذا القدر من الحماس؟

وتنقسم إجابة فيرابند إلى شقين: الشق الأول يتمثل فى امتحان كل القواعد المنهجية التى تقدم بها الاستقرائيون والتكذيبيون وغيرهم أمام محكمة تاريخ العلم. هل التزم العلماء فى ممارساتهم العلمية بمثل هذه المنهجيات؟ ونحن نجد فى كتابات فيرابند وغيره من المفكرين التى تناولت بالتحليل التفصيلى نماذج كثيرة من تاريخ العلم حالات كثيرة من الخروج على القواعد المنهجية المتعارف عليها فى كتابات الفلاسفة.

أما الشق الثانى: فيتمثل فى الجانب الإيجابى المعيارى من أطروحة فيرابند الجريئة، وهو أن مبدأه الفوضوى هو ما يجب أن يكون، هو الذى سيكون فى صالح المثل الأعلى الليبرالى الذى ننشده. وواحدية السلطة فى العلم ليست فى صالح العلم نفسه.

خذ القاعدة المنهجية التى تقرر أن علينا أن نقدم ونطور فروضاً علمية غير متسقة مع النظريات المقبولة والمؤيدة بدرجة

عالية (p.29) ويهدف فيرابند من هذه القاعدة إلى إذكاء المنافسة بين نظريات العلم. النظرية القوية مطلوبة ومرغوبة ولكن لا تترك لها الساحة خالية، وعلينا أن نوجد وندعم البدائل المختلفة لهذه النظرية، فخير اختبار للنظرية العلمية أن تتنافس مع نظريات أخرى قوية. وفى هذا الإطار ينصح فيرابند بالبحث فى تأسيس صورة معدلة لنظرية الخلق المستمدة من النصوص الدينية حتى تواجه نظرية التطور، ويكون التنافس العلمى بينهما فى صالح التقدم وفى صالح الإنسان صحيح أن الكثيرين من فلاسفة العلم يجزمون بالتفوق الحاسم لنظرية التطور [راجع مثلاً Thagard (1992), Ch. 6] ولكن هذا يجب أن يؤدى فى نظر فيرابند إلى العمل بصورة أفضل فى إعادة صياغة نظرية الخلق، وغيرها من النظريات، حتى لا تترك نظرية التطور وحدها على الساحة. ويصبح العلم وفق هذا التصور أبعد ما يكون عن سلسلة النظريات المتسقة التى تتجمع متجهة نحو المثل الأعلى، ولا الاتجاه التدريجي نحو الصدق النهائي، بل إنه سيكون محيطاً من البدائل النظرية غير المتسقة فيما بينها، وكل نظرية منفردة، كل رواية خيالية، كل أسطورة تشكل جزءاً من هذه المجموعة تجبر الأخريات على مزيد من الدقة والوضوح، وتساهم جميعاً فى هذه العملية عن طريق التنافس فيما بينها فى تقدم وعينا (p.30) .

إن هذا الحديث يذكرنا بحديث الليبراليين عن أهمية تدعيم التنافس فى السوق، ومنع الاحتكار، وكذلك التنافس بين الأحزاب المختلفة والقوية على الوصول للسلطة، بل يذكرنا بحديث النقاد الرياضيين عن أهمية قوة المسابقات الرياضية فى ارتفاع مستوى أداء الفرق المختلفة. درس فيرابند يتلخص فى أننا فى الممارسة العلمية نفعل ذلك تماماً، وهذا ما يجب أن يكون. ويضرب مثالاً من تاريخ نظريات الحرارة لتوضيح أهمية التنافس بين النظريات لكى يحدث تقدم حقيقى. كان سقوط النظرية الفنومنولوجية فى الحرارة ولا شك تقدماً كبيراً فى الفيزياء فى نهاية القرن التاسع عشر. يقرر فيرابند أن سقوط هذه النظرية باكتشاف التناقض بينهما وبين ظارة الحركة البراونية لم يكن ليحدث لولا تطوير نظرية منافسة وبديلة لها هى الديناميكا الحرارية التى قدمت الأساس النظرى للحركة البراونية مما ساهم فى رفض النظرية الفينومينولوجية وكان هذا بالقطع فى صالح العلم (p.40).

إن ما نستخلصه مع فيرابند هنا هو أن النصيحة المنهجية التى قدمها إسحق نيوتن والتى تدعونا إلى عدم البحث فى بدائل النظرية العلمية إلا بعد أن يظهر ما يتعارض معها من ملاحظات وتجارب – هذه النصيحة ليست فى صالح التقدم العلمى بأى معنى من المعانى بالرغم من أنها مقبولة على نطاق واسع من

قبل أصحاب المنهج الاستقرائي، بل مقبولة بشكل جزئي من كارل بوبر الذي يؤكد على الطابع الثنائي للنقد العلمي، أي وضع النظرية في مقابل الوقائع التجريبية التي تنجح في النهاية في اسقاطها. ولكن هذا النجاح يستحيل أن يحدث - كما يوضح فيرابند - دون وجود نظرية أخرى على درجة عالية من التطور بحيث توفر الأساس الذي نخلق منه «الحقائق» التجريبية التي نمتحن بها النظرية المستقرة.

وهذا يعني بالضرورة أن الممارسة العلمية كانت دائماً متعددة الأطراف، يجب أن نسعى لتدعيم الأطراف جميعاً مما يخلق المناخ الصحي الملائم لنمو المعرفة ولتصحيح صورتنا عن العلم عن طريق نفي وحدته وتطوره الخطي باعتبارهما هدفين ساذجين وغير واقعيين للنشاط العلمي.

والآن، إذ كان من الجائز أن ندافع عن التعايش «غير السلمي» بين نظريات العلم، بل وأن نسعى إلى إذكائه، فماذا نحن فاعلون إزاء علاقة النظرية بالحقائق الفردية والملاحظات ونتائج التجارب؟ وتأتي أهمية هذا السؤال من زاوية اتفاق معظم فلاسفة العلم على أن نتائج التجارب والمشاهدات هي القول الفصل في الحكم بين النظريات العلمية المتنافسة.

ونعلم من كتابات إمري لاكاتوش Lakatos الناقدة لكارل بوبر أن كل النظريات العلمية تولد في بحار من التناقضات،

ومعنى ذلك أنه لا توجد نظرية علمية متفقة مع كل «الحقائق». لو استمعنا لبوبر لألقينا هذه النظريات جميعاً من النافذة، ولكن فيرابند يعلن ضرورة احتضانها وتدعيمها. ويكفى لبيان ذلك إعادة التأكيد على ما كان لفيلسوفنا مع كوكبة من فلاسفة العلم أن كشفوا عنه في الستينيات من علاقة «جدلية» بين الملاحظات والنظريات. الملاحظات تعتمد على النظريات وتساهم فى نفس الوقت فى تأسيس نظريات جديدة، هذا ماكشف عنه فيرابند، مع هانسون وبتنام وغيرهم، ومن هنا فالإصرار على الدفع بنظريات علمية تتعارض مع نتائج الملاحظات والتجارب يبدو معقولاً، عند فيرابند من زواية أنه يزكى التنافس بين النظريات، ويؤسس عوالم ممكنة مختلفة يمكن من خلالها النظر إلى العوالم الأخرى التى ترسمها النظريات المنافسة ونقدها.

وتاريخ العلم يؤيد هذه الأطروحة، ذلك أننا كثيراً ما نجد أن نظريات علمية كثيرة قد استمرت ونمت وساهمت فى تقدم البحث العلمي وعاشت قروناً طويلة بالرغم من تعارضها الذى لا شك فيه مع بعض «الحقائق» المتاحة وقت ظهورها. يذكر فيرابند (pp. 55 - 56) منها ما يقرره جاليليو من أنه لا حدود لدهشته إزاء تعارض نظرية كوبرنيكوس (وأرسطارخوس) مع حقائق واضحة جداً. كذلك واجهت نظرية الجاذبية النيوتونية صعوبات خطيرة كانت كافية لرفضها منذ البداية. وبالنسبة

لنموذج نيلز بور الذرى نجد أنه قدم وطور بالرغم من وجود أدلة عكسية دقيقة ولا سبيل للشك فيها.. ترعرعت أيضاً نظرية النسبية الخاصة التى قدم كوفمان نتائج تجريبية دقيقة متعارضة معها.. وهكذا. كل هذه مجرد أمثلة على نظريات علمية ولدت متناقضة داخليا ومع الملاحظات التجريبية بشكل واضح أمام روادها ونقادها بنفس الدرجة، ومع ذلك لم يتم التخلص منها، بل استمرت وقويت وتدعمت وتنافست فيما بينها بأشد ما يكون التنافس.

ويمضى فيرابند فى تقديم الأمثلة المتعددة على تعارض الممارسات العلمية فى أكثر صورها إبهاراً مع كل القواعد المنهجية المتعارف عليها. ويتعرض بالتحديد لتاريخ الثورة العلمية الكبرى التى تأسس بها العلم الحديث كله، وهى النظرية الكوبرنيكية التى تطورت ونمت وشكلت الأساس المتين للفكر الإنسانى على أيدى كوبرنيكوس ثم جاليليو ونيوتن وغيرهم. هذه النظرية وصلت إلى هذه المكانة بالرغم من تعارضها مع العديد من «الحقائق» المتعارف عليها - مثال حجة البرج - فضلاً عن النظريات العلمية المستقرة فى ذلك الوقت. وقد دفع أنصار هذه النظرية بما يؤمنون به بالرغم من علمهم بتناقضاتها الداخلية فضلاً عن تناقضاتهما مع غيرها، وكان حافزهم إلى هذا بعض الاعتقادات الميتافيزيقية التى جعلتهم يغضون الطرف عن

النصائح المنهجية التى تجلت فى كتابات فيلسوف مثل بيكون، بل فى كتاباتهم المنهجية نفسها، وكان هذا كما أثبت التاريخ فى صالح التقدم العلمى ولا شك .

غير أنه عند الحديث عن التقدم فى العلم يجب الاحتراز والتحفظ بعض الشيء. فبول فيرابند وتوماس كون وغيرهما يقدمون معاً الأساس الفلسفى المتين لظاهرة عدم الاتساق الجذرى Incomensurability بين نظريات العلم الكبرى. وبالنسبة لكون Kuhn تحديداً نجد أن مراحل الثورة العلمية تؤسس نسقاً نظرياً منفصلاً تماماً عن النسق الذى ينتمى الى النموذج القياسى السابق على هذه الثورة (راجع الترجمة العربية لدراسته الهائلة حول بنية الثورات العلمية) وهذه نتيجة من أخطر نتائج البحث الفلسفى التى كان لفيرابند مع كون دور هام فى تقديمها والدفع بها فى حلقات البحث الفلسفى منذ الستينيات حتى يومنا هذا (راجع مثلا Ch. 17 من «ضد المنهج»).

وقد أثبتت كتابات توماس كون المتأخرة قدرته على التراجع عن النتائج المتطرفة التى تؤدى إليها نظريته فى الثورات العلمية والنماذج القياسية، ونعنى تحديداً تنصله من النسبية المعرفية على وجه الخصوص. أما فيرابند فقد آثر أن يمضى الى نهاية الشوط وأن ينتقل من نقد فكرة الحقيقة العلمية الى رفض المنهج

الى رفض العلم أو على الأقل رفض تميز العلم بأى صورة من الصور عن أشكال التعبير الإنساني المختلفة ليقول فى النهاية وداعاً للعقل نفسه (١٩٨٩) وبذلك ينضم الى قافلة أصحاب ما بعد الحداثة من أمثال ليوتار (١٩٨٥) وريتشارد رورتى (١٩٨٠) وغيرهما، وإن كان يتميز عن هذه الكوكبة بكونه قد اعتلى المسرح من سلم فلسفة العلم كمحترف، ولا ينكر أقسى نقاده تمكنه من هذا التخصص الدقيق.

صحيح أن هناك بعض المحاولات الجادة لإعادة تفسير موقف فيرابند، والتخفيف من غلواء المضامين النسبية التى تعبر عنها كتاباته دون أدنى مواربة، ومن هذه المحاولات الدراسة الجادة التى قدمها هوكر Hooker وذلك بغرض إيجاد حل وسط يقرب بين فيرابند والتيار العام الأكثر تقليدية فى الفكر الغربى عموماً وفى فلسفة العلم على وجه الخصوص. [راجع فى هذا الصدد Hooker (1991)] لكن فيرابند يسخر من هذه المحاولة ويمضى مستخفا حتى بالمتعاطفين معه بنقاده اللاذعين بنفس القدر من الحرارة.

وعلى مستوى ظاهرة فيرابند الخاصة نجد أنه يمضى دون تردد فى نقد أقدس الأقداس فى الثقافة الغربية وهو العلم والمنهج العلمي، ويسخر بمرارة من المفتونين بالعلم والمنهج. إن فيرابند أشبه بالفنان المتمرد على عصره، ولكن الطريف أن هذا

التمرد كما يتجلى فى كتاباته الفلسفية ليس مطروحاً كعمل فنى يغفر لصاحبه أن ما يقدمه خيال فى خيال، ولكنه مطروح كفلسفة علمية دقيقة، بل وكرؤية اجتماعية وحضارية مرتبطة بفلسفة سياسية ونظرة شاملة للكون ومكان الانسان فيه. ولعلنا لا نفاجأ أن فيرابند فى بداية حياته العملية كاد أن يعمل فى مسرح بريخت مساعدا للمخرج. صحيح أنه ترك المسرح ولكنه نقل روح الفنان معه الى حرم العلم المقدس. وهذا ما يجلب عليه الانتقادات التى لا تنتهى.

والآن نتساءل: ماذا عن النتائج التى يمكن استخلاصها من أطروحات فيرابند؟ لا شك أن صاحبنا يهاجم العلم والعقل الإنسانى بصورته التى حاول الفكر الغربى ترويجها لسنوات طويلة بدءاً من القرن السابع عشر على وجه التقريب. العلم طبقاً لتحليلاته التفصيلية التى تناولناها أقرب فى بنيته الى الأسطورة مما تسمح به أى فلسفة علمية ظهرت قبل فيرابند (p. 295) ولعلنا نذكر هنا أن واحداً من عناصر النزعة العلمية المتطرفة التى رصدناها فى السطور الأولى لهذا البحث يتمثل فى تميز العلم بصورة حاسمة عن كافة أشكال الوعى الإنسانى.

ولما كان تميز العلم يتحقق بوجود منهج صارم دقيق فإن ما حاول فيرابند البرهنة عليه من عدم وجود منهج علمى على الإطلاق كما أكد تاريخ العلم، بل إن محاولة فرض منهج على

الممارسة العلمية يعوق التقدم ويهدر إمكانات البشر المعرفية كما يقول. وهنا تؤدى هذه المقدمات الى سقوط كل دعوى لتميز العلم عن الأسطورة وعن البناءات الميتافيزيقية الكبرى. ويستند فيرابند الى بعض نتائج الدراسات الانثروبولوجية الى قدمها إيفانز بريتشارد وهاملتون وجرمياس وروبين هورتون وغيرهم . ساهمت هذه الكتابات فى رصد تشابهات كثيرة بين العقل العلمى والعقل الأسطورى.

ومع ذلك فقد كان من الممكن استيعاب نتائج الدراسات الانثروبولوجية على اعتبار أن العلم والأسطورة غير متسقين جذريا Incommensurable ، وهو ما قد يفتح باباً ضيقاً لإعادة تأسيس التميز الذى نلحقه بالعلم. يتمثل هذا فى صلة العلم بالواقع وأن طابع العلم تمثيلى repesentational ، أى أنه شبيه بمرآة تعكس الواقع الفيزيائى بدرجة معقولة من الدقة. ولكن الدراسات المعاصرة فى الابستمولوجيا الاجتماعية تقدم أدلة كثيرة وهامة ضد هذا الطابع التمثيلى باعتبار أن العلم تركيب اجتماعى على درجة عالية من التعقيد [راجع فى هذا [Woolgar (1988)]، أو أن مجاز المرآة لا ينطبق على البناءات العلمية بأى صورة من الصور [Rorty (1980)] .

ومن ناحية أخرى ساهمت أطروحة عدم الاتساق الجذرى Incommensurability بين العديد من نظريات العلم

الكبرى كما كشف عنها فيرابند [(1975), Ch. 17] وتوماس كون فى تقويض أساس مبدأ تميز العلم بالصورة التقليدية. وبذلك فالعلم والأسطورة يقفان على قدم المساواة ويتنافسان كرؤى مختلفة للعالم من حق الفرد أن يقبل واحدة منها دون الأخرى. لا تميز للعلم من زاوية معرفية على الإطلاق حين نقارنه بأساطير البدائيين أو بالانساق الميتافيزيقية التى قدمها فلاسفة ومفكرون فى عصور سابقة، أو برؤى للعالم مستقاة من النصوص الدينية السماوية.

نتيجة «منطقية» مترتبة على هذه الرؤية تتمثل فى أن من الضرورى الفصل بين العلم والدولة. يؤكد فيرابند أن الحضارة الغربية قد أنجزت قدراً كبيراً من الفصل بين الدين والدولة، ولذلك فهى فى حاجة الى الفصل بين العلم والدولة. ذلك أن الواقع التاريخى للحضارة الغربية يؤكد أن العلم أوشك فى أكثر من مرحلة أن يحل محل الدين ويلعب دوره فى تبرير السلطة والمحافظة على واحديتها كما فعل الدين فى العصور الوسطى (pp. 299-300).

إن دور العلماء والخبراء يشبه الى حد كبير دور رجل الدين فى العهود الماضية من تاريخ أوربا. الخبير والعالم المتخصص فى فرع من فروع المعرفة له سلطة مرتبطة بسلطة الدولة، ولا رقابة اجتماعية على المتخصص. أما الروح الليبرالية المتطرفة

[راجع (1981) Newton Smith] التى يعبر عنها فيرابند فتؤكد على ضرورة السماح لكل التقاليد المعرفية المختلفة بأن تعبر عن نفسها داخل المجتمع دون هيمنة لطرف على بقية الأطراف، وهذه هى دعوى فيرابند التى طورها فى دراسته التالية ، وهى بعنوان: «العلم فى مجتمع حر».

ويطالب فيرابند بأن تطبق فلسفته الليبرالية فى التعليم الذى يجب أن يعكس أيضاً ايمان المجتمع بقيمة الليبرالية المطلقة حتى على حساب العلم. لماذا نعطى أصحاب نظرية التطور الحق فى الانفراد بالكلمة فى نظامنا التعليمى؟ ولا نعطى نظرية الخلق نفس الحق؟ لماذا يستأثر الطب الغربى بكل الاهتمام والتمويل البحثى ولا نسمح لممارسى الطب الشعبى بنفس الفرصة؟ إن فيرابند يطالب بالمساواة الكاملة لكل هذه التقاليد حتى تتصارع ويعبر المجتمع الإنسانى عن تعدديته بكل قوة مما يشكل الأساس لتفتح طاقاته وانطلاق الجميع.

* * *

وبعد هذه الرحلة القصيرة والشائقة مع ممثل لتيار رفض الحداثة فى الفكر الغربى، وناقد قاس للعلم الغربى أكثر جوانب الحضارة الغربية سطوعاً وموضع الفخر للجميع تقريباً حتى عصر قريب، ماموقفنا نحن فى هذا الجزء من العالم؟ إن هذه الدعاوى تتلاقى جزئياً على الأقل مع بعض الدعاوى التى تطالب

بالانغلاق عن العالم الخارجي والنكوص الى الماضى السحيق بحثاً عن مستقبل شانه غير واضح المعالم.

إن مهمتنا تبدأ بالفهم ثم البحث عن الدروس المستفادة. أما عن موقف فيرابند وريتشارد رورتى Rorty وليوتار Lyotard وغيرهم من المفكرين من دعاة النسبية واللاعقلانية فهم يمثلون تياراً يحاول تجاوز المشروع الحداثي وليس النكوص عنه، ومن ثم فقد يجوز أن نقبل هذه الأطروحات ليس بحثاً عن بديل جاهز محدد، بل تأسيساً على مكتسبات القرون الأربعة الأخيرة ورفضاً بالقطع لمثالبها الكثيرة والخطيرة.

يقول فيرابند أن ما يطرحه من رفض للمنهج ورفض لهيمنة العلم ورفض للعقلانية الغربية لن يؤدى الى الفوضى الشاملة Chaos ، وهى تختلف عن الفوضى المنظمة Anarchy إلى حد كبير. هو أولاً يثق أن دعوته لن تكون مقبولة من الجميع(!) وهذا ضمان لعدم الانزلاق الى الفوضى الشاملة. ولكنه يعبر فى موقفه العام عن مفارقة طريفة: فمن ناحية يؤكد فيرابند على أهمية وجود من يرفض أطروحاته المتطرفة، وهو هنا كمن يتآمر على آرائه، ومن ناحية أخرى يبدو طبيعياً أن توجد رؤى فلسفية معارضة له، وهو ما تقضى به فلسفته التعددية على كل حال. ويسعدنا بالتاكيد أن نكون ضمن خصوم فيرابند.

غير أن مهمة الفهم عسيرة ونحن إزاء هذه الشخصية

الفكرية المحيرة، كيف لا وهو يمثل ظاهرة تستعصى على التحليل والاستيعاب حتى بالنسبة للتيار العام فى الفكر الغربى؟ ومع ذلك نستطيع أن نقترب قدر الإمكان من بعض الملامح العامة التى تجعل من كثير من أطروحات فيرابند مفهومة، بل وربما مقبولة جزئيا إذا نظر اليها فرادى على الأقل.

إن نقد المنهج الذى يمثل جوهر فلسفة فيرابند يرتبط الى حد كبير بأزمة المنهج فى الثقافة الغربية المعاصرة بدءاً من نقد الاستقراء عند هيوم ثم بوبر فى القرن العشرين. وكذلك نقد الكثيرين من أصحاب العلوم الانسانية والاجتماعية للمنهج الاستقرائى والمنهج البوبرى لصالح أطروحات منهجية متباينة. ولعل هذا ما دفع الكثيرين الى تبنى أطروحة تعدد المنهج عموماً، وفى العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص [Roth (1987)]. صحيح أن فيرابند يتجاوز هذا الطرح ليدعم المناهج المتناقضة والرؤى المتعارضة، ومن ثم لضرب فكرة المنهج الواحد الوحيد ذاتها، ولكن الخلاف بالنسبة لبعض الدارسين خلاف فى الدرجة فقط، وإن كان كبيراً.

يعكس الطرح الفكرى الذى يقدمه فيرابند اهتماماً متنامياً فى الفكر الغربى بداية من ديوى Dewey وانطلاقاً من أطروحات فتجنشتين Wittgenstein المتأخرة بدراسة الممارسة الإنسانية Human Practice ، وجعلها محور

البحث الفلسفي سواء كان الأمر بالنسبة للسلوك الإنساني العادى أو السلوك الابستمولوجي، والدافع وراء هذا عند الكثيرين، ومنهم كواين Quine وجير Giere هو أن الفلسفة عموماً ونظرية المعرفة خصوصاً عليها أن تتوقف عن أداء دور الناصح الأمين للنشاط العلمى الإنسانى، وتقنع بدور الوصف بدلاً من التحديد القبلي للمنهج العلمى ولمعايير العقلانية دون أن تكون هذه الفلسفات متجاوبة بوضوح مع الممارسة العلمية الحقيقية.

والعلاقة بين تاريخ العلم وفلسفة العلم أصبحت فى هذا السياق على درجة كبيرة من الأهمية، فلم يعد النظر الى تاريخ العلم مجرد التقاط لنماذج جزئية منتزعة من سياقها الاجتماعى والتاريخى والثقافى، وتجريدها من هذا كله بحثاً عن مضمون منطقى أو منهجى لا أكثر، ويحدث فى معظم الأحيان أن يفرض هذا المضمون المنطقى على النموذج العلمى المعين. إن السياق العام الذى تولد فيه النظريات العلمية وتعيش زمنا ما طال أم قصر أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لفلسفة العلم. وخير شاهد على ذلك كتابات توماس كون التى تؤسس فلسفة العلم بناء على تفسير معين لتاريخ العلم، ولا تفرض فلسفة قبلية a priori على هذا التاريخ. وكذلك أيضاً دراسات فيرابند نفسه، بما فيها دراسته التى نهتم بها هنا والتى

يخصص أكثر من نصفها لتحليل نموذج تاريخي واحد هو الثورة الكوبرنيكية في الفلك.

وتعكس أطروحة فيرابند أيضاً، كما نوهنا سابقاً، الروح الليبرالية التى يبالغ صاحبنا فى الالتزام بها. ولكن التأكيد على التعددية حتى في مجال المعرفة ونفى السلطة المعرفية للنموذج العلمى والمنهجى الغربى والإصرار على إتاحة الفرصة لكل الايديولوجيات المعرفية الأخرى، والفصل بين الدولة وكل ايديولوجيا معرفية يؤكد التقاليد الليبرالية التى يستند إليها فيرابند ولذلك يعتبر أن السيطرة التى نجح العلم فى تحقيقها على مؤسسات الدولة خلال عقود طويلة بدءاً من القرن السابع عشر لم تكن فى صالح الإنسان. ولعل جهود فيرابند تبرز هنا تنافراً طريفاً بين انجازات الفكر السياسي وتراثه من ناحية وتراث الاحترام العميق الذى تكنه الثقافة الغربية للعلم. نزعتان متنافرتان تكشفان عن توتر عميق فى قلب المشروع الحضارى الغربى الذى نكتفى هنا برصده فقط.

إن فلسفة فيرابند ورورتى وأطروحات ما بعد الحداثة تعبير حاد عن أزمة الفكر الغربى، ونحن بالقطع لسنا بعيدين عنها، ولكن موقفنا الصحيح منها تمليه أزمتنا الحضارية نحن، والتى تشكل أزمة الحضارة الغربية جزءاً منها وإن كانت لا تستغرقها. يقول فيرابند إنه لا مانع لديه أن يأتي زمن يحسن أن يتمسك الناس فيه بأهداب المنهج والعقلانية، وربما يكون هذا فى صالح التقدم بأى معنى من المعاني، ولكننا نقول إنه قد يأتي وقت يتمرد الناس فيه على العقل والمنهج والعلم، ولكن ليس الآن بالنسبة لنا لأنه لن يكون فى صالح التقدم.

المراجع :

(1) Carnap, R. (1967). The Logical Structure of the World, trans. by R. George, University of California Press.
(2) Feyerabend, P. (1975) Against Method, Verso Books.
(3)............................ (1978): Science in a Free Society, Thetford, Norfollc.
(4) .... (1989): Farewell to Reason, Verso, London.
(5) Hooker, C. A. (1991): Between Formalism and Anarchism: A Reasonable Middle Way, in Beyond Reason, edited by G. Munevar, Boston Studies in the Philosophy of Sciene, Vol. 132, pp. 41 - 107.
(6) Horwich, p. (ed.) (1993). World Changes, Thonaus Kuhn and the nature of Science, A Bradford Book.
(٧) كون، توماس: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
(8) Lyotard, J. F (1985): The Postmodern Condition, English Translation, Manchester University Press.
(9) Newton-Smith, W. (1981) : The Rationality of Science, Routledge.
(10) Rorty, R. (1980): Philosopluy and the Mirror of Nature, Princeton Uhiversity Press.
Sorell, T. (1991): Scientism, Routledge, London.
(11) Roth, P. (1987): Meaning and Method in the Social Sciences, Cornell Unirersty Press.
(12)Thagard, P. (1992): Conceptual Revolutions, Princeton Univevmty Press.
(13) Woolgar, S. (1988): Science: The Very Idea, Ellis Horwood Limited.

رقم الايداع : ٩٦/١٥٥٤

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه السلسلة :

سلسلة جديدة أشرف بتولى مسئوليتها، يتسع موضوعها ليشمل محورين أساسيين لا غنى عنهما لحياتنا المعاصرة: الفلسفة - العلم.. من الفلسفة إلى العلم، ومن العلم إلى الفلسفة، تنتقل يوماً هذه السلسلة فى محاولة لصياغة رؤى جديدة تسهم فى صناعة العالم الفكرى الذى يتجدد كل يوم.

هذا الكتاب :

المشكلة هى المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما فى العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة فى شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكريا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.. وعلميا أيضا .

لذا كان هذا الكتاب.

د. يوسف زيدان